... وخاتم المُنْبِئين عن الغيب

القول الفصل الأخير حول حقيقة "الله والكون والإنسان" هو لِحضرة محمد ﷺ الذي هو شجرة الوجود، والعلةُ الغائية لكتاب الكائنات، وأقوى صوت للدعوة إلى الحق سبحانه... إنه هو المخبِر الأخير عن "الغيب" وعن "غيب الغيب"، وهو المفسر السديد للأشياء والأحداث، وهو المبيّن للعلاقة بين الإنسان والخالق من غير أدنى لبس، وهو الموضح عيانا وجهاراً مقتضياتِ هذه المناسبات. هو المرشد إلى القرب الرباني؛ وهو الأول والأقرب إلى الحق جل وعلا من جهة، والأخيرُ والأعظمُ أمانةً من وجهة أخرى.

الملائكة انتظرته، والأنبياء بشروا به، والأولياء ثمراته التي تَقتبس منه النورَ. مشكاة النبوة اتقدت به بدايةً، وبه أيضاً ظهرت زبدة معناها ومحتواها في أبهى صورة وأنْورِها. نورُه الأول سَبَّاق الأنوار، وطوفانُ ضوئه الأخير هو ظهوره في العالم الخارجي. ومن جهة أخرى، هو فهرست الآفاق والأنفس، ولبُّ الوجود وعصارتُه، وأضوأُ ثمارِ شجرةِ الخلق من حيث الغاية، وسيد الإنس والجن أجمعين باسم الخالق الجليل.

هو فوق الوصف أبداً من حيث جوهره وموقعه، لا نظير له باعتبار ذاته، فريد الكون والزمان بأعماقه الأخروية، وبرهانٌ ظاهرٌ بالرسالة التي يحملها. شُهرتُه تمتد إلى ما قبل آدم النبي عليه السلام، وضياؤه لهجت به الألسن

من قبل وجوده، وقدومُه -وقدمه تاج رؤوسنا- إحسان للإنسانية جمعاء. وُجُوده أصفى لؤلؤة في صَدَفة الوجود، ورسالته أشمل الرسالات. عِلمه زبدة العلوم كلها، وعرفانه منبعٌ نقيٌّ وصافٍ يجمع حوله أضوأ الوجوه، وأُفقُه كمرصد تُهرَع إليه الأرواح الصافية المتطلعة إلى اللانهاية. العيون حظيت بقراءة الأشياء على وجهها الحقيقي بفضل النور الذي نشره في الأرجاء. والآذان استمعت في ترانيم أقواله إلى أنغامٍ روحانيةٍ من جواهر الكلمات لم تسمعها من قبل. وكم سرٍ ظهر عياناً بياناً، وكم فكرٍ كدِرٍ صفا إلى الصفوة في أجوائه. من رآه واستمع إليه زال عن روحه الصدأ، وانقشع عن عينه الضباب. وما إن أخبر عن أولِ كلِ أول، وآخرِ كلِّ آخر حتى عُرف كلُّ مجهول عجزت عن إدراكه عقولُ البشر، وتحلى غيرُ المعلوم بلباس العلم والمعنى، وأصبح الوجود كلُّه قصيدةً شعرية تُنشَد على كل لسان، ونغما أبديا يُفَسّر غاية الخلق ومقصده.

العلوم ما هي إلا قطرة من بحر علمه، والحكمة برمتها رشحة نزرة من شلال معارفه. الأزمنة كلها لا تعدل لحظة من لحظات عمره. كرةُ الأرض التي لا تزن جناح بعوضة في الكائنات هي عالم يَعدل الوجودَ بسر كونها مسقطَ رأسه. هو المقدَّم في التعيُّن والبرنامجِ القدري، وهو صاحب القول الفصل الأخير في قضية النبوة، وهو الشارح الحقيقي للظاهر، وهو الناطق بأسرار الباطن. هو سلطانُ عرشِ النبوة بخَلقه خلقا ملائماً لتلقّي الحقائق العلمية والعقلية من روح القدس، وبشعوره الرحيب، وبإدراكه الرفيع، وبقلبه المنفسح لما وراء الملكوت، وبسر استعداده للاطلاع على ما وراء الوراء. وهو أفصح ترجمان لعالم الرسالة الإلهية مبلّغا ما تلقاه إلى الأرواح والعقول من غير عارض أو خلل، كجهازِ استقبالٍ نورانيٍ منفتح على الماورائيات.

وهو -مع أن له خصوصياتٍ ذاتيةً سامية- يخبرنا بمقتضى نبوته عن الحق تعالى، ويُعَرّفنا به، بذاته وأسمائه وصفاته، ويُحفّز فينا الشعور بالمسؤولية أمام الحق تعالى. ومن هذه الجهة هو معرِّف ومعلمٌ أكبرُ يُبَيّن ما لا يَبِين ويُشعر أرواحَنا بما لا يُدرَك. أما من جهة تبليغ الأحكام الدينية وتعليم القيم الإنسانية وتمثيل الأسس الأخلاقية، فهو مُشَرِّع موظَّف وواضع للقوانين وقولٌ شارحٌ لحقيقة الحقائق.

إن النبوة والرسالة -وتحت وصايتهما الولاية- كما أنها متفتحة على الظاهر، كذلك هي "مُفَتَّحة الأبواب" على الباطن. وإن عقول هؤلاء أيضاً قد اصطبغت بصبغة هذا المنصب الإلهي... لكنها تقف من ورائهم بخطوات، تنتظر الأوامر منهم. إنَّ عقلاً مدرِكاً لحدوده -مثل عقولهم- داخلاً في وصاية النبوة، يتنور بـ"الروح الأعظم" ويصير بُعداً مهما من أبعاد حقيقة الإنسان. وبمرور الزمان يبدأ باستشعار الباطن مع الظاهر، والآخرِ مع الأول.

وإن للوجود ظاهراً وباطناً؛ الظاهرُ يُرَى بالعين ويُدرَك بالحواسّ، ويُقَوَّم بالعقل والمحاكمة العقلية. أما الباطن فلا تُفتح أبوابُه إلا من قِبل الله لمن خُلِق بجهاز يستشعره، فيتم الإحساس به صوتاً ونَفَساً ولوناً ونقشاً مختلفا عن الظاهر. فالأنبياء يستمعون إلى هذا الصوت والنَفَس بموجاتٍ مختلفة الأطوال مدى الحياة، ويتصرفون أبداً بمقتضاه.

وإن حضرة سيد الأنام -عليه أكمل التحايا- رمزٌ وصوتٌ للفائقية المطلقة من حيث جهازه الخاص المتناسب مع حاله الخاص. فالله يُسمِعه ما لا يُسمَع، ويريه ما لا يُرَى، ويُقدمه على الروحانيين بإكساب روحه ماهيةً فوق الزمان والمكان أحياناً، فيتقدم على الملائكة، أكرمِ عباد الحق

تعالى، فيصل إلى "قاب قوسين أو أدنى". وله مكانة وقَدْرٌ متمادٍ ووطيد عند الخلق كدرجته عند الحق تعالى؛ فإنه ما حاد عن الاستقامة قيد شعرة في عمره كله، ووَثِق به الجميعُ من صديق أو عدو، وبلَّغ المخاطبين بما أُوحي إليه من الحق تعالى في بهائه الرباني، ولم يُذكَر إلا بالعصمة، ولم يُعرف إلا بالصون الإلهي، وقرأ -دائما- الطبيعةَ وما وراء الطبيعة قراءةً سديدة، وفسرهما تفسيراً صحيحا بروحه النيرة وبفطنته النافذة المتفتحة على عوالم المادة وما وراء المادة؛ ولذلك هُرع إليه من غير توان صاحبُ كلّ وجدان نظيفٍ متنزهٍ عن أي حكم مسبقٍ، وخضعت له أعصى النفوس تمرداً، واستسلمت له أذكى الأدمغة قاطبة؛ إذ قَرأت في رسالته غايةَ خلق العقل. وبفضله انسلخ الإنسان من الحيوانية والجسمانية وتوجَّه تلقاء أفقٍ في مرتبةِ حياة القلب والروح. هو -باعتبار أفق الوجود- المفتاحُ السري للباب الموصِلِ إلى الوجود الخارجي، وهو -باعتبارِ تحقيق الهدف من خلق الوجود- الهادي إلى الصراط المستقيم الموفي إلى الحق تعالى، ونبع شفاعة السعادة الأبدية.

كل الأنبياء الذين مضوا من قبله قد قالوا ما قاله... والأولياء والأصفياءُ مِن بعده كلهم أجمعون -وأحوالهم الخارقة شاهدة على دعواهم- صدَّقوه وشهدوا على صدقه، وأقروا واعترفوا بأن حظوتهم هي منه. فإنه قد قال: "الله" ولَفَتَ الأنظارَ إلى التوحيد. وإن أصوات الأنبياء والمرسلين وأنفاسَهم، ومشاهداتِ الأولياء والأصفياء وكشوفاتِهم طراً، تؤيده وتسنده.

وكان صرحاً للإيمان؛ يعيش ما يقوله بمعيارٍ أدقَّ من شعرة شطرت أربعين مرة، ويزن تصرفاتِه بموازين الآخرة الدقيقة، ويحيا حياتَه في عمق كأنه يرى الله، وفي عمقِ رؤيةِ الله له. هو الأرهف حساسيةً في تصرفاته،

والأعظمُ جدّاً في المسؤولية، ويسعى حثيثا في أثر حسن العاقبة ولا يحيد طرفة عين عن الهدف، بل يهرع أبداً إلى النقطة التي اختير لها... وإذ يهرع إليها، يمد للجميع خطوط المعاني حُزماً حُزماً من الروابط بينه وبين الله تعالى.

وهو الذي شرح معنى الوجود فربطه بصاحبه الحقيقي، وبيَّن الحكمة المكنونة في لب الأشياء والأحداث، وذكَّرَنا مرارا بأننا لسنا وحيدين هنا، فشرح صدورنا بإشعار أرواحنا بأننا تحت الرعاية الربانية، وأزال الوحشة من نفوسنا وسما بأرواحنا إلى العلياء بنفحات أُنسه، وسقانا مشاعر السكون والاطمئنان التي نَشعر بها في ربوعنا وبين أهلينا. فإن كنا نحس بأن كل شيء في محله في هذا المأوى الدافئ، وإن كانت قلوبنا تخفق بعشق الحقيقة، وإن كنا نُطلِق أنظارنا في آفاق الكون الشاسعة مفكّرين متأمّلين.. فهذا كله بفضل النور الذي أوقده في عقولنا. وكلُّ ما نعرفه عن الإنسان والوجود والكائنات برمتها، فهو تفصيل لمجمَل ما أودعه في نفوسنا، ونموٌّ لبذور الحقائق التي بثها في أرواحنا.

هو باني الإنسانية من جديدٍ، ولا يزال، وسيبقى بانياً، في أمسِها ويومِها وغدها. وكما بدَّل في عصره بحملة واحدة، وبنفخة واحدة، مفاهيمَ ضالةً، وسلوكياتٍ غير إنسانية، وانحرافاتِ سوءِ الأخلاق والأمزجة المغروسة في الطبائع من آلاف السنين، فسيُسمِع صوتَه -يقيناً وحقاً- للجموع المنفلتة، المنفرِط عِقدُها اليوم، ويضبطهم بضوابطه إن عاجلاً أو آجلاً، ويُظهر قوة رسالته... وسمِّه -إن شئت- تجديد القراءة السديدة والتفسير الصائب في حقيقة (الإنسان والكون والألوهية) مرة أخرى، واتخاذ الإنسان موقفا يناسب دوره اللائق به في الوجود.

لقد أُرسل حضرة سيد الأنام (عليه ألفُ ألفِ صلاة وسلام) برسالة تتعلق بكل أحد وكل شيء. وكان يوفي وظيفتَه حقَّها ويؤديها بعمق فتمتلئ بحبه الأفئدةُ وتنجذب إليه القلوبُ. فهو يُشعُّ تكامُلاً شاسعاً في خلقته، وصدقا منقطعَ النظير في تصرفاته، وربانيةً تتجاوز جوانبه المادية دائماً في سلوكياته. وهو -فوق هذه الجماليات الظاهرية الباهرة- صاحبُ أخلاقٍ رفيعةٍ لم يطلها أحد، سمَّاها القرآن الكريم بـ"الخُلق العظيم".. حتى إن مَن يدخل رحابه لمرة واحدة من غير أحكام مسبقة، لا بد أن يدخل تحت تأثيره ويتعلقَ به إلى الأبد. وعنده -مع هذه المحاسن والمعالي- بيانٌ يأخذ بالألباب؛ فإذا تكلم أبكمَ أمهرَ حُذَّاق اللسان، فيغوصون في مراقبة السكوت، وينجرفون في تيارِ جذبات أقواله.

وإليك شيئاً من تفصيل ما قلناه آنفا: لقد وهبه الله تعالى السعة في خلقته الداخلية والخارجية، فهو مَهيب في تواضعه، جذاب في شخصيته؛ حتى إن دَخَلَتْ إلى حضرته أشدُّ النفوس كبراً وغروراً، ارتعشتْ من هيبته، وتصرفتْ بغير ما نَوَتْ وتصورت؛ وإن رسل كسرى المتكبرين ذهلوا وأُلجموا حيال صرح المهابة هذا. ومع هذه الهيبة وهذا الجدِّ والوقار، كان فيه لينٌ عجيب يجذب إليه النفوس، حتى لَيُحِسُّ من يَعرفه عن قرب بأنه أقرب إليه من الولد والأم والأب وكلِّ حبيب، بل يكاد "يدمِن" عليه فلا يود أن يغادر مجلسه أبداً. أحوالُه وتصرفاتُه كلُّها تبث ثقة عميقة في القلوب، وأقوالُه وأفعاله وملامحه تدل على حضوره الدائم أمام الله تعالى. يبث الأمان دوماً، وينشر الاطمئنان في الجميع حُزَماً ورُزَماً.

فقد عُرف بالأمين أولاً وآخراً؛ فالأمن يُشعُّ من نظره، وكلامُه يدور بلا توان حول الأمن، وفي حضوره تُسمع نغماتُ الأمن. وكانت تصرفاته

وعقله وروحه وعواطفه ومنطقه في توازن وانسجام تام. وإن ذكاءه المتقد، وفراسته السديدة، وثباته الذي لا يعرف التردد، وعزمه وإقدامه، وإستراتيجيته المحيرة للعقول مع تجنبه الكذب والخداع، وصبره وثباته حيال أشد الأهوال، وتبسمه في وجه المصائب، وقراءته للملمَّات قراءةً صائبة، واستخلاصه منها عبراً ملء الكتب، وحِلمُه الوطيد، ووقارُه الراسخ حيال الأحوال الموجِبة لأشدِّ العنف والغضب والحدَّة، لهي نبذة يسيرة من خصاله وأخلاقه التي تُبرز شخصيته المتميزة بين البشرية، وتُفصح عن مقامه ومكانته ووقفته الفريدة التي تناسب هذه المكانة السامية. فله المواقف البطولية التي تتبدل بها الهزيمة إلى الظفر، والفرُّ إلى الكر، فترفل رايات النجاح الإستراتيجي في خِضَمّ المعارك ودخان الحروب.

كان بين أهله ربَّ عائلة لا نظير له ولا شبيه، وبين أصحابه معلّماً ومرشداً كاملاً يدلف إلى شغاف قلوبهم بلينه الأخوي، وهادياً سديد الرأي لا يخذل من اتبعه، وخطيباً سيداً على الكلام، ذا قلب رباني، وحكيما أستاذاً في استخدام العقل، ورئيسَ دولةٍ لم يُعرف مثله، وقائدا عظيما يحوّل الهزائم إلى انتصارات بحَملة واحدة. فأنواع الكمالات كلها كانت تَبلغ فيه الذروةَ العُليا، لكنه كان يتصرف أبداً بين الناس كفرد من الناس، ويَعُدُّ نفسَه واحداً منهم، فيؤذيه -مِن كثرة تواضعه- أن يُسنِد الناسُ إليه -أدبا منهم- مقاماتٍ رفيعةً هو حقيق بها أصلا، فيحذِّر أصحابَه بين فينة وأخرى من ذلك تحذيراً شديداً قد يصل إلى حد التوبيخ أحيانا.

كان بمثابة "علة غائية" للوجود، لكنه ما كان يوليه اهتماماً بقدر جناح بعوضة. رَفع السلاطينَ إلى العروش وألبسهم التيجان، لكنه عاش زاهداً أشد الزهد، فكأنه صائم عن الدنيا؛ فأشبع ولم يأكل، وألبس ولم يلبس،

وهتف بالشكر مئات المرات حيال قطرة من نعمة، مستشعرا فضل الله عليه وإحسانه على الدوام. فهو يسابق الملائكة في مضمار المعرفة الربانية والمحبة والخشية. أجل، كان في الدنيا، لكنه لم يكن دنيويا، بل كان في طريق العقبى... بل لم يكن مرتبطاً حتى بالعقبى أوّلا وبالذات، ذلك لأن قلبه كان معلقا بربه، وعينه في آثاره وفي أسمائه الحسنى التي تضفي على آثاره ألواناً وصورا ومحاسن شتى. كان ينظر إلى الدنيا وكأنها خليج للعقبى، ويراها وكأنها مزرعة يُزرَع فيها ويُحصَد، ويحيل الحاصل إلى الآخرة. وكان يَهُبُّ ويروح ويغدو كالرياح التي تحمل البذور يمينا وشمالاً لتُودِعها أمانةً للفلْق والنماء، فكان يعتني بالفقراء ويرعاهم، ويُطعم الجياع، وكثيراً ما يبيت هو جائعاً خاوي البطن. إنه سلطانُ عالَمَي الدنيا والآخرة، لكنه إذ ارتحل إلى ربه، لم يورث أهله قصراً ولا عقاراً ولا مالاً ولا ريشاً. فقد عاش عيشة تليق به، وقوّم الدنيا تقويما يناسب شخصيته، ورحل منها رحلة توافق مكانته وعظمته. ومعلوم أنه لم يكن تاركاً للدنيا تماما، كما أنه لم يكن جامعا لها ومشغولا بها قط. فإنه كان يهتم بالدنيا بقدر حجمها وفنائها، ويهتم بالآخرة وما وراء الآخرة بحسب خلودها وسرمديتها، فيتخذ موقفه منهما بناء على هذا التصور.

ومع مهابته الرائعة المحيرة للعقول الحاصلة من علوّ الأصالة وسموّ النجابة وصِلتِه الوثيقة بالحق تعالى، كان متواضعاً أشد التواضع وكأنه يجمع بين الأضداد، حتى إن من لا يعرف خصاله وسجاياه المذكورة آنفاً، كان يحسبه من آحاد الناس. كان لا يُعير اهتماما بتعظيم أصحابه وتوقيرهم له، فيَقعد معهم ويأكل ويشرب، ويستر عنهم فوارقه وخصوصياته السامية التي تفرَّد بها عنهم أشدَّ السترِ حتى لا يُشعرَهم بالتمايز، ويريحُ مَنْ حوله

أحياناً بمُلَح من ألوان التجليات الجمالية من العبرة والحكمة والمزاح أحيانا لكي لا يثقل عليهم ما في طبعه من المهابة والعظمة والمخافة؛ فهو يزين عِزّتَهُ بالتواضع، ويلطِّف مهابته بالشفقة، ويقدم لونه الناسوتي[1] ليزيد حلاوة إلى شهد مقامه وحلو طعمه.

كان حليما ومأمونا ورزينا، ليّنا أعظم اللّين حتى في الأحيان التي تُستَفز فيها وتثار مشاعرُ الحقد والكره والغضب، فيخفّفُ شدة الطيش وحِدَّةَ الغيظ، ويسكّن بنظرة واحدة عداوةَ ألدّ أعدائه؛ وكان كلما أريد سحبه إلى موقف الخصم قفز إلى موقع الحَكَم. كان عفوّاً وسمحاً ما لم تُنتهك حرمة الله تعالى أو يهضمْ حقٌ عام. وفي السيرة النبوية مئات الأمثلة والشواهد على عفوه وصفحه وسماحته.

وما كان له نظير في الوفاء بالوعد؛ فلم يخلف وعداً قط ولو مرة واحدة، ولم يرجع عن قول ألبتة، ولم يقل شيئاً ثم خالفه، أو نَطَق بشيء خلاف الواقع حتى وإن كان إيماء، سواء قبل البعثة أو بعد نيله شرف النبوة. فسيرتُه صرح للأمانة والصدق والوفاء، وحزمُه ضدَّ من يخون العهد والميثاق معلومٌ ومشهور.

كان سلطانَ عالم البيان، ولقد بلغ جوهرُ القول قيمتَه الحقيقية على لسانه. لم يمسك بيده قلما ولا قرطاسا، ولم تطالع عيناه كتابا، ولم يجلس في حلقة درس، ولم يحتج قط إلى أن يقول لأحد: "أستاذ"؛ بل كان أستاذ الكل في الكل، وما من شيء يستطيع أن يمس أستاذيتَه الكليةَ. وفي هذا صيانة من الله لأوامره الإلهية أولاً، وصيانةٌ لِمَلَكات النبي الفطريةِ ثانيا وتاليا، من التأثيرات والتصورات الخارجية، حتى لا تُكَدِّر المكتسباتُ

[1] الناسوت: الطبيعة البشرية.

الذهنية والمعلوماتُ الأَجنبية تفسيرَ الأوامر الإلهية، ولا تتلوَّن بلون غيرِ لونها، أو تصبَّ في قالب غير قالبها. فكان أميا بهذا المعنى -ونفوسنا فداء لذاك الأمي-، ولكن له أقوال وأحكام وقررات في شتى الشؤون من أمور الدنيا والعقبى -باعتباره أستاذ الكل- حيَّرت وأدهشت الكلَّ؛ بدءًا مِن المتبحرِين في العلوم وامتدادا إلى فحول العباقرة، وإلى العقول الضليعة في الفلسفة، وإلى النفوس الصافية والأرواح المستنيرة. والتاريخُ يشهد أن أحداً لم ينل من رصانة بيانه، أو يقدحْ في حكم له، أو يتجاسرْ على أن ينتقص من إجراء له.

كان خزينة للمعرفة وحوضا للعلم نقيا متلألئا، لم يعترض أحد على إخباره عن الأحداث الغابرة، ولا إخبارِه عن شؤون الديانات والمذاهب والثقافات والتقاليد والأعراف العائدة إلى أمم بائدة في التاريخ، وما كان لأحد أن يعترض، لأنه رسول الله، ومصدرُ علمه السديد الذي يصب في ذلك الحوض وتلك الخزينةِ هو الله تعالى. فكان في البيان سلطانَ البيان وصاحب القول الفصل، وكان في المنطق صرحَ محاكمةٍ، وفي الفكر بحراً محيطاً كفؤا لضخامة مهمته ورحابة رسالته العالمية. إن عباراتِه من السلاسة والانسياب، وبيانَه من الوضوح والفصاحة، وأسلوبَه من الغزارة والتلون والبهاء، بحيث يستطيع أن يعبّر عن حقائقَ ملء الأرض في جملة أو جملتين، ويضمّنَ شؤونا تَسَعُ المجلدات في كلمات، وينطق بجواهر -وأيما جواهر- ليودعها عند أساطين التفسير والتأويل. وفي حديثه: "أعطيتُ جوامع الكلم"[1] إشارة منه إلى هذه الرحاب الفسيحة.

وكان الناس يُمطرونه بوابلِ أسئلتهم في كل شأن من كل جهة، فيردُّ

[1] البخاري، الجهاد ١٢٢؛ مسلم، المساجد ٦.

عليهم من فوره بغير أدنى تلكؤ. كلامُه سهل يفهمه السواد الأعظم، ويعبر عن مقصوده بعيداً عن التشوش أو التشويش في إيجاز صاف وسيّال. وحين يتكلم يراعي مستوى المخاطبين لكي يفيدهم، من عالم وجاهل، وذكي وغبي، وقليلِ خبرة وخبير، وشاب وكهل، ورجل وامرأة، فيَبعث الاطمئنان في قلوبهم.

وإن أقواله وخطبه كثيرة، حيث خاض في شؤون مختلفة، وحلَّل موضوعاتٍ متنوعةً، لكنه لم يجانب الحقيقة والواقع في أي من أقواله وأفكاره. فلم يستطع أحد أن يلحظ على بياناته وأقواله ما يخالف الواقع، حتى إن ألد خصومه الذين يترقبون زَلة منه ليوقعوا به، لم يجرؤوا على إسناد الكذب إليه، بل عجزوا عن ذلك.

والحق أن من صان لسانه وكل تصرفاته عن مخالفة الواقع صوناً أدق من الشعرة، من طفولته إلى شبابه، ثم إلى سن تَشَرُّفِه بالنبوة في الأربعين، لا يُتصور أن يقوم بادعاء النبوة زوراً. وإنَّ تصوُّراً كهذا شيءٌ يتجاوز الإثم إلى تعصب كُفريّ أعمى، واستهانةٍ بالعقل والمنطق. هذا، وإن تبليغاته وموضوعاتِ أحكامه رحيبةٌ وَسِعَت الماضيَ والحاضر والمستقبل، ومحتوياتها متنوعة تتعدى عقول البشر: فهو يتكلم في العقائد، ويضع الأحكام في العبادات، ويتحدث في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والإدارية، وينفّذ ما يقول، ويَجني ثمراتِ ما ينفذ، ويتخذ من التاريخ شاهدا على صواب الأسس التي وضعها فيودع هذه الشهادة أمانة في الضمائر المنصفة البعيدة عن الأحكام المسبقة، وبعد ذلك يوقّع عليه بختم التصديق آلافُ المفسرين والمفكرين والخبراء المتفننين في فنون كثيرة، ومئاتُ الفلاسفة، على ما قال، وعلى الأسس الاجتماعية

والاقتصادية والنُّظُم العسكرية والإدارية، والقواعدِ التربوية التي وضعها. وزد عليهم جميعاً أن ملايين الأولياء والأصفياء يؤيدونه تصديقاً في كل حكم وفي كل بيان لهم، ويهتفون بأنهم بلغوا المراتب والمقامات بهدايته. لذلك فإن من يقول له: "لا"، فهو إما مخبول لا يدري ما يقول، وإما بائس بسوء الحظ مغسول الدماغ. فما شهد الماضي والحاضر أحدا مثله استطاع أن يقول شيئاً أو يضعَ أحكاما ثابتة في مسائلَ كثيرةٍ مختلفة، ولا سيما في موضوعاتٍ تتطلب حنكة واختصاصا ومهارة، فيدومَ طرياً ونديا أبداً مع الدهر. وكما نبَّه بديع الزمان النورسي رحمه الله: "إن الإنسان قد يستطيع أن يقول شيئاً ذا بال في بضعة فنون أو علوم، لكن حضرة ذاته ﷺ أدلى بدلوه في شؤون دقيقة تتعلق بالوجود والأحداث كلها، وقال أقوالا نافذةً في كل زمان ومكان، وبأسلوب بديع في المهارة والحكمة، وباطمئنان من غير تردد وتلكّؤ، لا يملك حياله مَن رآه وعرفه، ومن سمعه فأنصت إليه من غير حكم مسبق إلا أن يقول: "آمنتُ وصدّقتُ".

كان صرحاً للإيمان والحركية

ليس في البشرية مَن قَرَن بين الإيمان والحركية قراناً لازماً متوازنا، فريدا من نوعه إلا حضرة النبي محمد (عليه أكمل التحايا). فقد ارتبط وتعلق بالله بإيمان غامر، وآمن -بكل كيانه- بأنه رسول الله، وسلَّم له تسليما مطلقاً، وعَمِل -في كل وقت- بشعور عميق بالمسؤولية، ولم ينزغه نزغ من التردد والتلكؤ في اعتقاده أو دعوته أو استقامة سبيله أو توفيق الله له. وتلقاه الناس بالقبول كصرحٍ للصدق والأمان. فمن سعد بمعرفته صدَّقه واطمأن إليه واعتمد عليه، واحتَسَب الإيمانَ به والاعتمادَ عليه واتِّباعَه حَظوة حباه الله بها.

وكانت الثقة العالية به، واللاهوتيةُ والرصانةُ في الأسس العمومية التي بشر بها، والاستقامةُ والجدُّ في حياته السَّنِيَّة، مدخراتٍ وكنوزاً فريدة فيه، جَعلت الآلافَ ومئاتِ الألوف يُهرعون إليه سراعاً من غير توان، لا يأبهون بعاداتهم وتقاليدهم وموروثاتهم الراسخة في دمهم ولحمهم. وكان هذا حدثاً نادراً لا مثيل له في التاريخ، مؤيّداً أنه رسول الحق تعالى. فينبغي أن يَنظر علماءُ النفس والتربية ملياً في أسس هذا الانقلاب العالمي الشامل الذي حققه حضرةُ الذات النبوية، وأن يتفحصوا علومه ومكتسباتِه وأفكارَه تارة أخرى، وقد عجزوا في عصرنا هذا الوافرِ بأجهزة التربية ووسائله، عن نزعِ بضعِ عادات عن بضعة أطفال!

ولقد نشأ في بيئة يتهالك الناس فيها على المناصب والمواقع، ويتحركون دائماً بحس التوحش، ويتفاخرون بالنهب والسلب، ويلهثون وراء الشهرة، ويتخذون عيش المتعة والثراء غاية وحيدة للحياة... بيئةٍ مستعدة للاعتداء والظلم والتعصب والأنانية والحسد والفحشاء؛ بيئةٍ لا يُسمع فيها إلا نعرات الظالمين وعويل المظلومين وأنين الضعفاء ودوي القوة العمياء، كما عبر محمد عاكف (في أبيات ترجمتها):

كانت الأرض كلها في ذلك الزمان،
في بلايا أشد من بلايا حاضرِ الأيام
والبَشَرُ أوحش من الضباع طبعاً
فمَن لا ناب له، يفترسه إخوانه من الأنام
والفوضى في آفاق الدنيا،
والنزاع سارٍ كالوباء،
و-كما اليوم في الشرق- ناخر في العظام

الظالمون زمر وزمر، والمتمتمون بغريزة الثأر أفواج وأفواج، وكان هناك ركام من البشر مصابون بِحُمَّى الهيمنة على الآخرين، وآخرون يظنون الانسحاقَ تحت حكم الظالمين طاعةً وانقياداً... وكذا هناك متسلطون وحكام وقحون يمثلون القوة العمياء، وجموعٌ من الناس فاقدون للشعور يُستَغَلون كالعبيد، ومنهم منفلتون من ضوابط الأخلاق، ومهدِّدون للفضائل والقيم الإنسانية العالمية، وعابثون، ولاهون، ومغبونون غرباء أُجبِروا على أداء العبودية لله في قيود القواعد التي وضعها العِباد... وغيرهم كثير وكثير... هكذا كان المشهد العام على وجه الأرض. فمِن هذه الجموع البشرية المتخلخلة التي كل جانب منها ينطوي على ثغرة من تلك التي سردناها، استطاع هو أن يبني مجتمعاً ممتازاً ومثاليا وخارقا هو أكمل ما عرفه التاريخ كله.

فبالأسس التي أتى بها كان يسيرُ في طريقٍ فسيحةٍ في لاهوتيتها وقربها من الله تعالى، متطابقة مع النُّظم الكونية العامة تطابقاً تاماً ودقيقا، موصِلة سالكَها إلى الأهداف الدنيوية والأخروية... فتنفست البشرية في أجوائه العجيبة هواءَ الانسجام مع قوانين الطبيعة ممتزجةً بالدين والتقوى والمسائل الماورائية. فليس في رسالته أو في تمثيله للرسالة تصادُمٌ مع الأشياء والأحداث، وليس فيها إهمال الإنسان باعتباراته الجسمانية والروحانية بحال من الأحوال.

وكان ينشئ من أجزاء متفرقة من أبناءِ فلسفات وثقافات شتى مجتمعاً منظَّماً كالبنيان المرصوص، يباري الملائكة... ويرغم أنف الإفراط، ويلجم التفريط، في جموع بشرية غريبة عن بعضها، وسهلة الانجرار إلى كل الانحرافات، وكان يشير إلى العقبى حينما يتكلم عن الدنيا، وينبه إلى الروح حينما يومئ إلى البدن، ويقدر كل شيء بقدره.

وكانت تبليغاته تستوعب أموراً كثيرة، من العقائد إلى العبادات، ثم إلى المعاملات، ثم -في إطار الأسس العامة طبعا- إلى الاقتصاد والإدارة والحقوق والعلاقات الدولية وقواعد الحرب والسلم وأسس التربية والتعليم وأصول تزكية النفس ونُظُم تصفية الروح. فكان يبين أسس هذه الأمور كلها بلسان يفهمه السواد الأعظم، ويبرهن عملياً بنفسه على إمكان تطبيقها بيسر، فيكون نموذجا مثاليا لها.

ومِن بعده، تأسست عشرات الدول وحُكمت مئات الشعوب وفاقاً لهذه المبادئ، وبزغت شموسٌ وأقمار في سماء الإنسانية من ملايين الأرواح المنوَّرة والأدمغة المفكرة ورجال "الحركية" الفياضين والفقهاء الأعلام والعلماء المتبحرين، على الرغم من الخصومة اللدودة من الأطراف المعادية وحقدهم وبغضهم وغيظهم وتخريبهم وعدوانهم. فمِن ساعةِ تشريفِه بالنبوة، وَجَد نفسَه حيال جبهة واسعة وعنيدة من أقرب الأعداء إلى أبعد الخصوم، طافحةٍ بالحقد والكره والعداوة. لكنه لم يهتز ولم ييأس ولم يأبه لشيء، بل بقي -من جانبٍ- مُعلِّماً وملقنا لرسالته ليقيم المجتمع العملي، و-من جانب آخر- استطاع أن يظل مقاوماً صامداً في وجه أنواع الخصوم من الركام البشري الذين لا إيمان لهم ولا أمان معهم. وفي هذا الخضم، لم يخَفْ ولم يخشَ ولم يهلع ولم يجزع ولم يتردد طرفة عين، وكذلك لم يقع في الاختبار والتراجع وإعادة التجربة، والغلط والتصحيح، ومسايرةِ الباطل وانتظار الفرص.

ولم يقع في خشية ردود الأفعال حينما واجه العالم كله بتفسير جديد للوجود، ونادى بصوت حديد -وأرواحنا فداءٌ لهذا الصوت- معلناً الحقَّ في وجه الأنظمة الدينية وغير الدينية، واتهم أموراً كثيرة في الاقتصاد

والسياسة والجيش والثقافة، وعالج مثل هذه الأمور أنى وجب ذلك. وإذ لم يهتز ولم يتردد قط، لم يدع عذراً لمن خلفه للاهتزاز والتردد. فوقف صامداً في التبليغ والرسالة، وصار مَعينَ أمان واطمئنان للجميع. ونفخ أنفاس اليقينَ دائماً في وعده وبشارته ونذيره، وهمس بأسرار الانتظار والترقُّب النشط في أذن الذين تآكل صبرهم لاستبطائهم العاقبة التي يرونها بعيدة، فأنشأ أبطالَ صبرٍ يُعجزون الصبرَ! وكذلك أنشأ من أرواح مشلولة وإرادات ضاوية وجِبلاّت عجولة أبطالَ عزيمةٍ تتحزم بعزم النبوة، بعدما دخلت في فضائه النبوي.

لم ينحن، ولم يُدارِ أبداً في تبليغه للرسالة إبان عهد الإرشاد الرائق في مكة أو حيال التضييق والحرب والقتال الذي بادر به الطرف المعادي. ولما ضعضع وحده القيمَ الكذابة للإرث الغابر والنظام المتعفن القديم وجعلها قاعاً صفصفاً، لقي معارضة رهيبة، وتعرض لأنواع الخطر والتهديد. فلم يعُقْه ذلك كلُّه عن مواصلة المسير في الدرب.. ولما انسل مهاجراً من مكة إلى المدينة من بين أعتى القتلة المتَطَبّعين بفكر الشقاء، أو حاصره الأعداء في غار "ثور"، وحينما قطعوا عليه الطريق الطويل مرات إبان رحلته، أو واجهوه بالحرب في "بدر"، أو حينما تصدى للذين عزموا على شرب الدم في "أحد"، أو تعرض إلى حصار التنكيل في "الخندق"، أو استَقبل وابل السهام بصدره في "حنين"... في كل هذه المواقف، كافَحَ بصدقٍ وبسالة وصار قدوة في الثبات والصمود لكل من قد يهتز، وبإرادته الصلدة رَفَعَ إلى العلياء إرادةَ الخائرين، وبدَّل رياح الهزائم الحاصلةِ بزَلّات الآخرين إلى نسائم الظَّفَر، وأرَغَم أنف كل الاحتمالات القاتلة حينما حوَّل رثاء النحيب المشعِر بالهزيمة هنا أو هنالك، إلى أناشيدِ الفلاح وأكاليل النصر.

لقد كان شجاعاً لا يضاهَى، ولكن كان مدبّراً كيساً بقدر شجاعته. فنراه في بعض المواقف لا يأبه بحياته، وفي مواقف أخرى يحيّر العقولَ بما اتخذه من تدابير الحيطة والحذر. لم يكن يأبه بالموت، بل كان ينتظره في كل آن. والحقيقة أن نظرته إلى العمر -حسب فهمه للحياة- هو موضوع تبعيٌّ مدَّخَر لخدمة الدعوة. والحياة إنما تجدُر بالعيش "لإعلاء كلمة الله" ولخدمة الحق تعالى، وإلا فلا معنى للحياة على وجه الحقيقة. فهذه الحياة عنده جسرُ عبورٍ إلى العوالم الأبدية وينبغي أن تقوَّم باعتبارها سبيلاً وممرا إلى الأرباح.

ولقد عاش عمرَه كلَّه ملتزماً بهذه النظرة. فقام وقعد بشعور "الإحياء"، واكتفى بفرح الآخرين وسعادتهم، وبذل للآخرين كل شي حصل عليه، فأسعدهم وقنع بالكفاف... فأكل وشرب ولبس يسيراً. فحياته كلُّها تُشعِر المتأملَ بخط عجزه وفقره إلى الله واحتياجه إليه، ولم يتبدل حاله في عمره كله. كان عنده الإحياء أحلى من أن يَحيَى، والإطعامُ ألذَّ من أن يَطْعَم، والإسعادُ أولى من أن يَسعد. فكان ينفق كلَّ ما يجد على المحتاجين، ويَمدُّ يد العون لكل فقير ومسكين، ويقضي دين المَدين، ويتمادى في البذل فيذيب الصدأ عن أصدأ القلوب، فيبدل هذه الدهاليز المظلمة إلى "بيوت لله" تنشر الأنوار.

ولما رحل فريد الكون والزمان، هذا الذي جعل حياته السَّنِيَّة أعظم بركةً من حياة ملايينِ الناس، رحل إلى الآخرة ودرعه المباركة مرهونة عند رجل من أهل الدنيا على دراهم معدودة.

والحاصل أن من ينظر إليه بنظر الإنصاف، ويطّلع عليه بالبصيرة، يظن أنه كائن فوق البشر؛ بإيمانه ومعرفته وصبره وحلمه ووفائه وزهده وشجاعته

وكرمه واستقامته وتواضعه ومهابته وحديثه وصحبته وحركاته وسكناته وبأحواله كلها، الفردية والعائلية والاجتماعية والإدارية والاقتصادية والعسكرية والتربوية. وهذا بدهي، لأن رسول الله ﷺ:

١- هو الوارث التام لجميع الأنبياء والمرسلين السابقين. فقد أخذ الله الميثاق من الأنبياء على القبول بنبوته. وبدهي أن هذا الميثاق كان باسم أممهم.

٢- وهو المرسَل برسالة عالمية وأبدية، ولم يُبعث إلى قوم معينين خاصة، أو لبلادٍ معينة حصراً، كغيره من الأنبياء. والشواهدُ الصادقة تجدها في كتب الخصائص.

٣- وهو الرحمة المجسَّمة المهداة إلى البشرية وهاديها الأخيرُ. والدليل على ذلك آيات القرآن الكريم، وسيرته السَنِيَّة برهان صريح على هذا.

٤- وهذه الرحمة المجسمة صارت درعاً واقية لأمته. والذين اتبعوه أمِنوا به من الهلاك العام من بعده أماناً لم يُعْطَ لأمم الأنبياء من غيره.

٥- وهذا الإنسان الممتاز الرفيعُ الشأنِ أقسم الحقُّ تعالى به وحده من بين سائر الأنبياء، وأيده بحيازةِ امتيازِ "لَعَمْرُكَ". فحياته انعكاس مراد الحق تعالى في مرآةٍ مجلاّةٍ، وبها أقسم تعالى.

٦- وهو الذي امتاز بأن الحق تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم، وخصه في الخطاب بعنوانَي النبوة والرسالة. وفيه عبرة للمؤمنين ليتأدبوا معه.

٧- وهو الذي أوتي "جوامع الكلم"، بمعنى البيان الجامع البليغ الوجيز، كما أشرنا فيما سبق.

٨- وهو الذي نُصر بالرعب في قلوب الأعداء من مسيرة شهر، وهذا لطف وعناية خاصة به من الحق تعالى.

٩- وهو وحده صاحب الحظوة باستحالة اقتراب السيئات منه، بالإضافة إلى أنه كان الوسيلةَ للانفتاح الدائم لباب التوبة من الذنوب.

١٠- وهو الذي أوتي الكتابَ المحفوظ بحفظ خاص والمصانَ عن التغيير والتحريف والتبديل إلى يوم القيامة، متميزاً بذلك عن الكتب الأخرى.

١١- وكذا، هو المكرم بشرف رؤية عالَم الآخرة والاطلاعِ عليها بكل أعماقها وهو لا يزال في الدنيا. وقد كوفئ في لطفِ مقام المعراج بكرامةِ عمقِ عبوديته وبالمواهب هناك في ذهابه، وبثمرات رسالته كهدايا حمَلَها معه في إيابه.

ولقد حظي -مع هذه الخصائص التي هي قطرة من بحر- بدرجاتٍ ومقامات كثيرة كاثرة كمعجزة القرآن الكريم والمعجزات الكونية، أظن أن إحصاءها يستوعب مجلدات. والحقيقة أن أعماقه كلها تنبعث من رحاب وِجهته المَلَكوتية. وهو من هذه الوجهة، يتمتع بماهية يضيق عنها كل تعريف وتوصيف. فإن ماهيته أرفع عُلْوِيةً من الملائكة، وتَعَيُّنُهُ أول الموجودات وأقدمها. فكونُ وجوده أوّلَ الأنوار ونواةً أمرٌ بدهي. وبه تَحرَّك أولاً تسطيرُ القلم المقدس، وبه تَحقَّق البرنامجُ البشري. وهو البرهان الصريح الأبهى لسلسلة النبوة على الوجود الحق. وهو أول مرآة مُجَلاَّة لحضرة ذاته ﷻ. فهو أصفى وأشفُّ محلٍ لتظاهُر الصفات الإلهية، وهو أفصح ترجمان قاليّ وحاليّ للحق ﷻ، وهو رحمة الله تعالى المجسمةُ في الدارين، ورمزُ إتمامِ ألطافه ونِعمه علينا.

وبه عُرفت أسرار الألوهية كلُّها بكل الوضوح. وبه تنورت العوالم وانقشع الضباب والدخان الظاهري، فبانت حقائق الوجه الآخر للكائنات عيانا بيانا. و كلُّ الأمور التي عُلِّمها النبيُّ آدمُ عليه السلام إجمالا، به أَدْرَكتْ التفصيلَ التامَ.

فهو الوسيلة العزيزة الوحيدة التي تُوصِلُنا إلى الحق تعالى من غير حَيْدٍ وزيغ. وعنده مفاتيح أسرار الخزائن الإلهية. وهو المستودع الأمين على سر مبدإ الوجود ومنتهاه.

هذا الذي لا يضاهيه أحد، بوصلةُ حقٍ جَعَل الحقُّ تعالى طاعتَه مِن طاعته. أضاءت الكائناتُ بالأنوار التي نشَرَها فصارت كتابا وقصراً منيفا ومَعرضا، وتَنوَّرت تلك الظلمات الشاسعة وذلك العمى اللامتناهي.

فبفضله صارت الظلمات ضياء، والتقت السماء والأرض في أُفقِهِ الوضاءِ التقاءً نهائياً.

هو الذي رسالته القرآن. وهو الذي أُفقُه العرفانُ. وهو الذي بيانه برهان. وهو وسيلة سعادة الدارين. هو الذي نال تلطيف الحق تعالى بألف وسامٍ معجزةٍ، وهو الذي سيظل اسمه وذكراه الطيبة على الألسنة إلى يوم القيامة مرتبطا بتزكية القرآن.

هو مدار شرف الإنسانية، ونقطةُ مركزِ حقائقِ النبوة. هو قائد عسكر جيش الأنبياء وهادي الإنس والجن، الصادقُ الذي لا يضل معه أحد. بيانُه "أمير اللواء لعسكر الأنبياء" كما عبر عنه الشاعر "فضولي"، وكتابه أعظم هدية من الحق تعالى... ولِما أنه محلَّ التجلي "للروح الأعظم"، -وهو كذلك بدون شك- فتبليغه إكسير الحياة لأرواحنا... وبه استيقظت الإنسانية على القيم الإنسانية الحقة... وبه اصطبغت بالصبغة التي يرتضيها الله تعالى. ففي غيابه الحسرة الخالصة والهجران المحض، وفي الانفلات منه الضلالةُ الصريحة والخذلان المبين.

فهو النقطة المركزية للأسماء الإلهية والصفات السبحانية وهو النجم القطبي في سماء النبوة. الظهورُ الأول والحقيقةُ الإجمالية ترعرعتا مرتبطَين

به، والعناية الإلهية المجسَّمةُ الأخيرةُ به عُبِّر عنها، ومفتاحُ الشفاعة الذي يَفتح كلَّ باب يوم القيامة سُلّم -ويسلَّم- إليه.

الرسالة التي حَمَّله الحق تعالى إياها متميزة جدا عما حُمّل به الأنبياء جميعاً، وتوجُّه ألطافه تعالى إليه ذو لون تكريمي وإعزازي. فحين يكلمه ربه يكلمه بأسلوب خاص يُعزه به ويعلمنا نحن أدبَ الخطاب معه. فهو المخاطَب العزيز بأفق التكريم والتلطيف بخطاب: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:١-٤). فهو مداد القلم الذي كُتب به الوجود، وروحٌ ومعنًى بمثابة الغاية لكتابة سطور الكائنات ومعناها، وأفصحُ ترجمانٍ لمجاهيلِ ظهورِ الأسرارِ الإلهية، ومخزنُ معرفة الحقائق اللاهوتية. هو خير شخص للمنصب السامي في الآية: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(آل عمران:٣١)، وأَسْطَعُ مَظهرٍ لمقام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾(الفَتْح:١٠)، وأرفعُ إنسانٍ في ذروة مرتبة الرضا، والممثلُ المشع بالأنوار لرضوان الحق تعالى، والنورُ الهادي للسائرين، بفحوَى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾(الضحى:٥). وهو بحقيقة مضمونِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧) المفتاحُ السِّرِّيُّ والبابُ للعوالم الرافلة بالإيمان والمعرفة في الدنيا، وبالجنة وجمالِ الله في الأخرى، والوسيلةُ النورانيةُ للحظوظ الماورائية، والمفسّرُ للحقائق التي لا يُدرَك كنهُها، والمفتي الخاص لعالم الذات (سبحانه)، والمَشرِق المنوَّر لأفق الصفات، والمُرشد الهادي المؤتمَن لمن اتبعه، وبَوْصَلة الحقّ لأهل التوحيد، وشعلةُ النور الإلهي المبدِّد لظلمات الضباب والدخان المحيطِ بعوالم الإدراك والإحساس، والخليلُ الوفيُّ الخالصُ للواهبين قلوبَهم

للحق تعالى، والخصمُ الألد للشيطان والشيطنة، والسورُ الحامي لمن احتمى به في الدنيا والعقبى، والشفيع الموئلُ للمذنبين.

به خُففت التكاليف الثقيلة التي ما كان النهوض بأعبائها مستطاعاً، وبفضله رُفع عن الأمة الخطأ والنسيان. وفي مناخه وإقليمه بَدَّل العفوُ والعذاب لونَه، ووقع في كل صدر رجاء العفو والغفران.

هو المدعو الخاص الذي دعاه الحق تعالى إلى وليمة السماوات، وهو العارج العابر بـ"قاب قوسين" حيث ترنوا إليه الأبصار. وضيافةُ "سدرة المنتهى" هبةٌ مهداة إليه وحده، وما رآه في مضمونِ ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾(النجم:١٧) من غير دُوار في الرأس أو غبش في العين، رصانةٌ ووطادةٌ خاصةٌ تَلطَّفَ الله تعالى بها عليه. شاهَدَ ظهور الآية الكبرى بخصائص ذاتِها فما عَشِيَت عينه البتة... وإذ ذاك صار "المشار إليه بالبنان" في أهل السماء كافة... معه صار جبريل –لأول مرة– رفيقاً وخادماً لبشر في سفر سماويّ لا يُدرك... وكان هو في سفره هذا يَمضي إلى ما وراء العوالم المادية عابراً العوالمَ المادية بسرعة تتعدى سرعة ضوء البوارق.. فيَرى ما لا يُرى. فـ"سدرة المنتهى" أولُ منزل، و"قاب قوسين أو أدنى" ذروةٌ يستسلم فيها العقل، و"لقاء الله" حظوةٌ تتعدى أُفق إدراكِنا وفهمِنا.

وسيد هذا كله –بتعبير الشيخ غالب–[1]، (مترجَماً من التركية)

---

[1] الشيخ غالب: ولد بإسطنبول سنة ١٧٥٧ وتوفي سنة ١٧٩٩. اسمه محمد بن مصطفى راشد. وغالب مَخْلصُه (اسمه الشعري) على عادة الشعراء الأتراك. تعلم الفارسية على يد أبيه بتلقي الدروس من مصنف تحفة الشاهدي في الطريقة المولوية التي ينتسب اليها هو وأبوه. تدرج في معارف الدين والتصوف والأدب حتى ارتقى إلى مشيخة التكية المولوية في غلاطة بإسطنبول، وبقي فيها إلى وفاته. له مصنفات في التصوف وشروح على المثنوي ودواوين شعر. أثر في شعراء التركية والفارسية وله أسلوب خاص ذو تداعيات غنية وخيال سارب ومتسلسل. أدخل ما يسمى بالسبك الهندي الى الشعر التركي ومال إلى الانبساط في المفردات التركية حسب مقاييس عصره. واحد من كبار شعراء المتصوفة (المترجم).

"هو سلطان الرسل الشاهُ الممجد،
وهو للبائسين، العز السرمد،
في الديوان الإلهي العميد المعتمد،
الأحمد المحمود المحمد".

إنه قد رأى... ورجع إلينا ليُرينا ما رأى. وإنه قد سمع، وعاد ليُسمِع أرواحنا ما سَمع. فهَمس في وجداننا بأسرار الأول والآخر، والظاهر والباطن. هو أهم رمز للأول، وهو مرآة الآخِر الباثَّةُ للأنوار. هو أعلى صوتٍ داعٍ للأحدية الذاتية والواحدية الصفاتية، وهو الإنسان الكامل الحقيقي المستودعُ الأمين على عِلم الذات والصفات والأسماء. هو منذ التعيُّن الأول مهاجرُ أفقِ الإنسان بعنوان "أحمد"، وضيف المدينة من مكة باسم "محمد"، وصاحب لواء الحمد من البرزخ باسم "محمود"، وقيّمُ أستار الجنة وجمالِ الله، ومنهلُ فيضِ العوالم الروحانية والجوهرُ الأصل لعالم الجسمانية بأسمائه الشريفة كلها.

فيا لب الوجود ونواتها، ويا ثمرة شجرة الخلق والصوتَ الجهوري لحقيقة التوحيد، لولاك ما كان لنا ولا للكائنات معنى. ولقد قرأنا ذواتنا، ووقف كل منا حسب موقعه -إن استطاع- في الصف الصواب - بفضلك أنت

بقدومك وَضَح الوجودُ والحوادث وزال الغبش عنها... بتشريف مجيئك تبدلت ألوانُ الأشياء وصارت لساناً فصيحاً تنطق باسمِ ما وراء الوجود.

ولم يسقط لك ظل على الأرض، ولكننا نجونا بفضل ظلك من السقوط والهلاك الأبدي. واليك أُوكِلَ منذ الأزل حَلُّ عقدة الكائنات المتشابكة، وإليك وُسِّد تقديمُها وتثمينها. والذين جاؤوا قبلك اكتفوا بتهجي مجمَلات هذه العقدة المتشابكة... وأنت الذي حللتَ العقدة وفصَّلت المجمل. وإليك سُلِّمَتْ مفاتيح الدارين بالتقدير الأول والتسليم الآخر... فأنت

مُفَتّح باب الدنيا ومرشد سبيل الآخرة. وصرتَ -برسالتك- الناطقَ باسم حقيقة التوحيد ومُخَلِّصَ الإنس والجان.

وقبل قدومك إلى الدنيا وتشريفك لها نادى مئات بل ألوف من أصحاب الوجوه النيرة بدعوى التوحيد، لكن أحداً منهم لم يبلغ مبلغ داوُدِيَّتِكَ.[١] فقد كانت لمواهبهم حدود معينة ما كان لهم أن يتخطوها فيَصِلوا إلى آفاقك. وقد سعوا في سبيل نشر رسالاتهم وتبليغاتهم أعظم السعي، وتخطوا ما لا يُتخطى. فمنهم من قُطع أمامه السبل، ومنهم من قُطعت رقبته، ومنهم من ارتحل إلى عالم الآخرة وما زال في بداية الطريق أو منتصفه، ومنهم من لقى أعنف أنواع التمرد، ومنهم من رُجم بالأحجار حيثما حل. كلهم طفح بالعشق والشوق في كل آن، وذاقوا وهم على قيد الحياة مرارة الموت مرات عديدة. وأكثرهم وجدوا ما يبتغون فنجا بفضلهم الألوف المؤلفة من البشر... ولكنك وحدك من بينهم أسمعتَ صوتك القاراتِ المختلفة ووقفت منتصب القامة من غير تزعزع واهتزاز. ولم يتخلف من أصحابك الذين اتبعوك تائه في الطريق إلا عدد قليل من المنفلتين. كان ينبغي إنجاز عمل عظيم، فَكَدَّ مَن اتبعوك كَدّاً كلهم أجمعون، وسعوا بلا فتور، وركضوا، ولكن لم يتعبوا قط، ولم يتخلفوا -البتة- عن المسير.

فهم يليقون بك وأنت تليق بهم. وتحبهم ويحبونك. كأن يد القدرة أعدتهم لصحبتك -وهبنا الله شعور نشوة الصحبة هذه في قلوبنا- فكانوا جديرين بصحبتك ولائقين بها. وحين سرتَ إلى الوصال فرحاً كـ"ليلة العرس"[٢] رنوت إليهم بجانب قلبك الناظر إليهم، فبكيت قبالة تلك الوجوه الناضرة.

---

[١] نسبة إلى النبي داود عليه السلام المشتهر بحسن الصوت وجَهْوَريته (المترجم)

[٢] ليلة العرس: من الرموز المصطلح عليها عند "المولوية" خاصة من طرق الصوفية، إشارة الى الفرح بالانتقال إلى العالم الآخر كالفرح في ليلة الزفاف. (المترجم)

لم يكن المعراج من نصيبِ أيِّ مباركٍ مِن قبلك... فطفتَ وشاهدت كل ما وراء المادة في أفق الرؤية. لكنك -حتى في رفراف تلك المحاسن التي تبهر العيون بضيائها- لم تفتأ تذكُر أصحابك وتذكُر من يأتون مِن بَعدُ. ولم يخمد في قلبك لهيبُ الرغبة والشوق في أن تُرِي ما تَرَى وتُسمِع ما تَسمَع وتُشْعِر بما تَشْعُر. ما أبدع وما أعظم ذهابك وإيابك وفَتْحَك فرجة في باب الماورائيات للأرواح المستعدة.!. فَرُحتَ كما أنت، ورجعت كما أنت، وفي هذه الرحلة السماوية الفريدة في تاريخ البشرية طراً، ارتبطتْ ألطاف الأزل بأنفاسك... ولم ينِ مَن في السماوات والأرض مِن السلام عليك توقيراً ومِن انتظار التباشير. كانت الأنوار فوارة في الأطراف كلها، والأضواءُ هاطلة في الأرجاء جميعها، طافحة على العصور كافة. ونحن احتفظنا برجائنا في أن تسقط قطراتٌ من حُزَم تلك الأنوار فوق صدر هذا العصر العفريت المارد، وسنبقى نرجو ونأمل. فأنت وفيّ، وما كنت لتَحرِم عشاقك في هذا العصر وأنت تهطل كرماً وعناية ووداً على الأرجاء كلها... وفِعلاً لم تحرمهم البتة. فإنَّ مَن يسير منا إلى النور، فإنما يسير بضيائك.. وإن كنا نحيا -ولو في الجملة- فهو بانتسابنا إليك.

يا أيها النبي المبارك المحلق في الأعالي أبداً..! أنت روحُ الروحِ لنا، ورسالتُك دواء لأدوائنا المزمنة، نرجوك أن تأتينا كرة أخرى، فلا تدعْنا بلا روح... نرجوك أن تتكلم مرة أخرى، فلا تَدَع عبيدك في مضض الهموم... في طريق مسيرتنا كثير من المتربصين بنا الداوئر، وعظائمُ من نيران الفتن تَغشي آفاقنا بدخانها... ونحن نكدح في السير مهما كان، نسعى مرة، ونكبو أخرى!.. فاجعل معيتك علامة لنا في طرق سيرنا، وأَشعِرْ قلوبنا بطمأنينة دلالتك وهدايتك إلى سواء السبيل. ولقد سار في هذه الطريق

الألوف ومئات الألوف، وعَبَرُوا منابت الأشواك والعضاه، فَقَطَفوا ورود فضلاً وزيادة، أو تعبوا وأُنهكوا مرات ومرات، واهتزوا وارتعشوا أحيانا... لكنهم كوفئوا دوما مكافأةَ الساعين الجادين الكادّين. وأنت الموجود في بداية طريق المفاجآت هذه، وأنت في نهايتها، وأنت في قرار قلوبنا أبداً، تعزُّزا ودَلالاً وإن غبت عن العيون. فإنْ كانت قلوبنا مازالت تنبض بالحياة فإنما هي من الإكسير الذي سقيتها أرواحنا. وإنْ كانت صدورنا مفتوحة لك، فهي بفضل جاذبية رسالتك واستيلائها على الألباب. وإذا لم تنادنا من فوق قمم القلوب، فلم نسمع نحن -بدورنا - مِن آفاق أرواحنا أنفاسَك المُحْيِيَة، فسنصفرُّ كالأوراق التي يلتهمها الخريف، ونصير سبباً لهبوب أنسام الحزن في أفقك. وكم كنا نتمنى ألا نتطاير أشتاتا مع الخريف، وألا نكون وسيلةَ حزن يطرأ عليك... لكن هيهات هيهات!.

ولقد جئتَ لتنفخ الروح في القلوب الميتة، ففعلت وأديت ووفيت بما اعتمدتَ عليه من منبع المدد والعناية... فانظر الآن إلى "الجنائز الحية" التي تجوب حيث رَفْرَفَت الحياةُ زماناً كبساتين إرَم! وإلى الغربان تنعق عناداً للبلابل! وإلى ضجيجِ مهرجانات الوطاويط في الأرجاء!... فتعالَ رحمةً بحالنا، ولا تقهر الطالبين للحياة بغيابك! ففي كثير من النواحي التي كان اسمُك يحلّق في سمائها، إذا بالشياطين ترفع فيها ألويتها... والدنيا وقعت في أحابيلِ فقر الروح والمعنى. إن إطلالك مرة واحدة على الأرواح سيُبدِّد ألاعيبَ الشياطين، وسيبث الحياة في المكبوتة أصواتُهم وأنفاسهم منذ عصور. وكم زُمرٍ حائرة تحبو في الشعاب الصعاب تظن أنها سواء الطريق، وكم زُمرٍ من غير طريقٍ البتة!. وعواصفُ النفاق تهُبُّ في كل جهة وصوب، والشتاءُ الزمهرير ينفث التوحش بلا كلل. وأبناءُ

"فاوست" أغرارٌ أكثر غررا من ذي قبل، و"مفيستو" أحذقُ المتمرسين! وإنا مغلوبون دائماً، وندفع الثمن على الدوام، فكأننا محكومون بدفع الإتاوة... فمنذ أن فتحتُ عيني رأيتُنَا نُهان ونُذَل كالأيتام في مائدة اللئام، ورأيتُنا نَعْلَق في شِباك الأفكار الخؤونة. وكيف نُيَتَّم في مائدة اللئام وأنت موجود؟ وما معنى فقدان الصاحب الحامي والحُكمُ لك؟ كلا.. لسنا أيتاماً، ولسنا من غير صاحب وحام... بل نحن كأمثال أولاد الشوارع الذين انتزعوا أنفسهم من مآويهم الدافئة وألقوها إلى الدروب... ولن ننجو من تعاطي المخدرات هناك وهنالك، ومِن ظلمِنا لأنفسنا، إلا أن نعود إليك ونستنشق روائحك الوردية... قُطَّاعُ الطرق يصولون في كل ناحية، وهريرُ السُّرَّاق والمشؤومين يُسْمَع في كل جهة. أباحوا كل شيء، فنهبوها، وكانت قلوبنا مما نهبوا!. "عقلُ المعاد" مَهيض الجناح في هذا الزمان. الوجدانُ مضطرب في الخفقان وأرواحنا في شِباك الهذيان... فافتح فاك وأرسل إلينا من أنفاسك نفحةً طرية توقظنا فنعود بها إلى ذواتنا... قانون الفناء لن يحُول دون قوة تأثير روحك، ولن يَقْدِر أحدٌ على محو اسمك من القلوب. أنت هبة الأزل إلينا هديةً لا تقدر بثمن، وأنت راعي بستان الآباد. وبكلماتٍ منك يُبَدّل الشوكُ طبعَه فيغدو ورداً... وإذ تَنطق تكون بيادرُ الأكاذيب كلها رماداً.

لجأنا إلى أعتاب بابك... نرجوك أن تكلمنا -متجاوزاً بُعدنا عنك- كما كنت تكلم أحباءك. فإذا فَرّجت بين شفتيك مرة بطل سِحرُ سَحَرةِ الكلام، فسنحل عُقَدُ أَلْسِنةِ المحكوم عليهم بالخرس -حتى إن لم يستحقوا ذلك-، وستنطلق الأصوات تنضد خطبا عصماء باسمك. وكم عصورٍ ميتةٍ انبعثت بأنفاسك -فدت نفوسُنا تلك الأنفاس- وكم مرةٍ تَراجَع إسرافيلُ

خطواتٍ إلى الوراء ووقف توقيراً لسماع أنفاسك الداوُدية بصوتِ صُورِك أنت. وكم كرّةٍ أنبتت القفارُ القاحلةُ جِنانا وحدائقَ بأنفاسك. ولستُ أدري هل تَعُدُّ "الرجاءَ كرّة أخرى" وقاحةً؟ وإنها إن تكُ وقاحة فهي هينة بالنسبة إلى حرمان قلوبنا منك. نحن بذورٌ سائبة تنتظر لواقح، وأنت كالرياح المرسلة اللواقح... نحن أجسادٌ ميتة تنتظر الإحياء، وأنفاسك إكسير الحياة لنا... فهُبَّ فوق رؤوسنا، وأَرِنَا سبيل الانبعاث، وانصبب علينا غيثاً زخاتٍ وزخاتٍ، ودَوِّ فينا ببشرى ربيع جديد. نحن نترقب مفاجآتِ تلطيفٍ وإكرام، ورؤوسُنا نضعها حيثما ستدوس قدماك، وعيوننا ترقُبُ حيثما سيسطع ظهورك المرتقب.

هذا العالَم عالمك... فهل يعني أيُّ قول وصوتٍ لغيرك شيئا في عالمك أنت؟ فمذ وقع ظلك على سطح الأرض لم يبق للنبي سليمان إلا الاسم. السِّكة عندك، والختم بيدك، فما قوة العسكر المقابل ولو كان قائده الإسكندر؟ وإذ تنعكس أصداء صوتك الدَّاوُدِي أناشيدَ في كل العالم فهل من حاجة إلى داوُد عليه السلام؟ ومادام القول قولك أفلا يُعَدُّ كلامُ متحدثٍ غيرِك وقاحة؟ ونحن الساقطون أرضا لن يُقيمنا على أقدامنا غيرُك... وظهرُ الإنسانية المقصومُ المحدَوْدِب لن يُقوّمه شيء إلا همتُك.

وإن ظلك على رؤوسنا -ولو من بعيدٍ- صار نفخةَ "انبعاث من الموت". وإن ولادتك الحقيقية ستطفئ الشموع الشيطانية كلها، وتحفّز الأرواح المدفوعة إلى الظلمات نحوَ منبعِ نورٍ لا يخبو... قد ربط الله النور الذي يضيء العوالم بك. وزِرُّ نبع النور الذي يضيء الدُّنَى تحت لمسة يدك. ولئن سألت فالله مريد مجيب... ولئن قلت فإنَّا سماعون مطيعون... فاسأل حتى تتجلى المشيئة الإلهية، وقل حتى تَسمَعَ الآذان قولاً سديداً.

أنت عند الحق تعالى وعند الخلق خير من العوالم كلها. نحن مستعدون لإرضاء دلالك وتعززك، وأنت إكسير حياتنا.[١] يد المسيح كانت تحيي أجساد الموتى بإذن الله، وأنت صرت إسرافيل تنفخ الروح في القلوب الميتة منذ مئاتٍ وألوفٍ من الأعوام. فتعالَ الآن وأذِعْ صيتك كرة أخرى في العالم أجمع حتى تنطفئ نيران النفاق والشقاق والفتنة، وتَتَسربَل كلُّ الأرجاء بلون قريتك.

وإن ما قلتُ هو صدى بؤسي، لكن رجائي هو الرجاء العام. عَرَفناك رحمةَ الرحمن للعالمين أبداً، وعَرَفنا أنفسَنا سائلين متسولين في الباب:

"أكرِم يا سلطاني ولا تقطع الكرم عن كل بائس متذلل،
وهل يليق بنبع الكرم قطعُ الكرم عن متسول؟"[٢]

(رَبَّنَا اٰتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أمرنا رَشَدًا، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا فَرَجًا وَمَخْرَجًا. وَصَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلاَةً تَكُونُ لَكَ رِضَاءً وَلِحَقِّهِ أَدَاءً، وَصَلِّ وَسَلِّمْ أَيْضًا عَلَى جَمِيعِ إِخْوَانِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، آمِينَ يَا مُعِينُ)[٣]

---

[١] لعل المقصود بهذا الخطاب الأدبي أن الرسول ﷺ هو إكسير الحياة الحقيقية الساري بالإحياء في كل شيء إحياءً حقاً. ولذلك فكل قول منه، وكل إيماءة منه، بل حتى كل سكوت منه، عزيزٌ مُفدّى أعظم من دلال الحبيب وتعززه على العاشق الولهان. (المترجم)

[٢] ترجمة بيتين لمحمد لطفي الألوارلي من التركية. وهو من مشايخ المؤلف (المترجم)

[٣] ما بين القوسين ورد في الأصل بالعربية (المترجم)

نظرة إجمالية إلى الإسلام

الإسلام مشتق من مادة السلم والسلام، ومعناه استسلام العبد لله تعالى، وانقياده لأوامره، وانخراطه في السير في طريق سليم وسديد نحوَ السلامة، وبثُّ الأمان في الناس وفي كل شيء، كما يعني سلامة الآخرين من لسانه ويده.

أساس الإسلام ومبدؤه هو الإيمان والإذعان، ومنتهاه الإحسان والإخلاص. وحقيقةُ الإسلام بإيجازٍ، هي أن يصدِّق المرء بحقيقة الألوهية تصديقًا لا يحتمل الضد مطلقًا، ويوثقَ رابطة قلبه بالحق تعالى، ويؤديَ التكاليف أداءً دقيقًا ورقيقًا وكأنه يرى الله تعالى أو يراه الله تعالى، وأن يسعى في بلوغ رضا الله في كل عمل يعمله.

وقد عرّف بعضهم الإسلام تلخيصًا بأنه: "التسليم لله ﷻ وإظهار الانقياد والولاء له بالشكر قولاً وفعلاً وحالاً، والمكوث في الرغب والرهب الدائم". فالذي على هذا الحال، يسمى مؤمنًا أو مسلمًا -وليس إسلاميًّا (Islamist-İslamcı)[1]- ويعتبر مرشَّحا لنيل السعادة الأبدية

إن الإسلام الذي يستند إلى الوحي الإلهي، وبلَّغه الرسول ﷺ وتَمثَّله

---

[1] أنبه أن مسمى "إسلامي" (Islamist) و"ديني" له وقع أثقل على النفس بالتركية، إذ يقال بالنص "إسْلامْجي" (İslamcı) و"دينْجي" (Dinci) بحرفي النسبة الجيم والياء (جي)، وبهما أيضًا يُعرف أصحاب الحرف مثل "كَبابْجي" أو "حَلْوَجي" (صانع الكباب أو الحلوى وبائعهما)، فيكون المعنى أثقل في التركية وكأن المبلغ أو الداعية إلى الإسلام صاحب حرفة يحترف الإسلام ويتاجر به. (المترجم)

وأحياه وطبَّقه.. دين سماوي. والمؤمن والمسلم هو من يجعل الإيمان بهذا الدين، إحياءً لحياته. ففي أساس الإسلام وباطنِه الإيمانُ والإذعان والتسليم، وفي ظاهره الطاعةُ والانقياد والعمل الصالح. وعرَّف السلف الدين بأنه: "وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات". وإنما يمكن الحصول على الثمار الدنيوية والأخروية لمنظومةٍ حركيةٍ فعَّالة كهذه بقدر جعلها عنصرًا لإحياء الحياة، وبمقدار تمثُّلها في الواقع. وإلا فيتعسر الحديث عن محاسنها إذا أقصيت إلى خارج الحياة.

ومع الانتباه للتمييز اللغوي بين الإسلام والإيمان، فالرأي الأرجح المقبول، هو أنْ لا إسلام بدون إيمان، ولا إيمان بدون إسلام؛ الإيمان باطن، والإسلام هو الظاهر بانعكاسه على القول والفعل والحال. والنظام الإلهي الذي نسميه "الدين الحق" هو الأمر الجامع لذلك كله. فالدين هو عنوان إلهي يعني أنْ يكون الإيمان والإسلام بجميع شُعَبهما وكلياتهما حياة للحياة. وإن القبول بهذا النظام على هذا الوجه وتطبيقَه في واقع الحياة، هو التصرف المؤمن، والذي يمثله بهذه الحال هو "المتديّن" التقي وليس "الديني"[1]. فبناءً على هذا، الذين يظنون أن الدين مجردُ "اعتقادٍ"، وكذلك "المسلمون بالثقافة" الذين لم يتقبلوه قبولاً خالصًا في صميم قلوبهم، كلاهما مخدوع. وجليّ أن كلتا الزمرتين محرومة، وستحرم، من حسن ثواب الدنيا والآخرة التي وعد الله ﷻ به أهل الدين والتدين.

---

[1] الديني: نسبة إلى الدين كما يقال "الإسلامي" نسبة إلى الإسلام. وهذان المصطلحان قد تم استخدامهما من قبل بعض الأوساط المغرضة والمعادية للإسلام -ولا سيما في تركيا- بقصد تشويه سمعة كل مسلم واع يحمل همّ إحياء شعائر دينه وإبلاغها إلى الآخرين.وهذه الأمور تدخل في صراع المصطلحات الثقافية الكثيرة، الحامي على سطح العالم الإسلامي، وفي تركيا خاصة. ومرده إلى قصد التمييز أو الفصل (كل حسب مرامه) بين المسلم وبين المبلّغ أو المرشد أو الداعية. ويراد منه تجريد المبلّغ أو المرشد أو الداعية عن الإسلام في بعض الأوساط، لعزله والاستفراد به. (المترجم)

لكن لا يصح احتساب العمل جزءًا من الإيمان استنادًا إلى ما ذكرناه آنفا؛ فمن اعتقد بأن العمل فرض ثم تَرَكَ إقامتَه وإجراءَه على وجهه فمع أنه يكون آثمًا ومرتكبَ ذنبٍ، لكنه يعتبر مؤمنًا. ولا علاقة لهذا الذي نقوله بأفكار "المرجئة" البتة، ذلك بأن الاستهانة بالذنوب مع الإيمانِ شيء، وتقويمَ المسألة في إطارِ "أن الله إن شاء غفر، وإن شاء عذب" شيء آخر. والإيمانُ -حسب القرآن- أصلٌ لابد منه، وأساسٌ ضروري لا يقوم شيء إلا به، وأما الإسلام فهو الوسيلة الوحيدة لصيرورة الإيمان من أعماق طبع الإنسان.

فالعمل من غير إيمانٍ نفاقٌ، وتركُ العمل رغم وجود الإيمان فسقٌ. ولا يُغفر عن النفاق بتاتا باعتباره كفرًا مخفيًّا ومضمرًا، أما الفسق أو الفجور، فيحتمل فيه المغفرة -في كل وقت- بالتوبة والاستغفار والإنابة إلى الحق تعالى. وبهذا الاعتبار، ينبغي أن نحافظ على حسن الظن بحق تارك العمل الذي لا يزدري به أو لا يستحقره أو لا يستهين به، وأن لا نحكم عليه بالكفر؛ وأما تارك العمل الذي يستحقر المؤمنين لكونهم مسلمين ويُسَفّههم، فللظن به وجه آخر غير الوجه الأول.

ويَجدر أن نذكّر ههنا، بأن محطّ الإيمان ومحل انكشافه هو القلب والوجدان، وبأن الله تعالى يريد -بمقتضى الإسلام- أصلاً مهمًّا آخر مع هذا القبول الوجداني، ألا وهو العمل الصالح والخُلُق الحسن. فمِن هذه الوجهة، ينبغي على المؤمن أن يحفظ -في كل وقت- ما صدّق به وآمن، سواء الأمور النظرية أو الشؤون العملية، إلا أن يُكره أو يُضْطر.

نعم، كما أنه لابد من تجنّب الشرك وكلِّ شوائب الشرك، لكي نكون مسلمين، ينبغي -كذلك- تعليق القلب بالله بإخلاص، وعبادةُ الله كأننا نراه

أو كأنه يرانا، وإجراءُ التصرفات الاجتماعية في إطار "الخلُق الحسن" الذي يأمر به الإسلام... وذلك كله، انعكاس لصور الروح الإسلامية على حياة الإنسان بأبعاد تجلياتها المختلفة. إن هذه الشؤون التي يمكن أن نُرجعها إلى الإيمان والإسلام والإحسان -كما ورد في حديث جبريل المشهور- هي بعينها، سلسلةٌ من اللوازم المرتبطة ببعضها البعض والمتداعيةِ فيما بينها، وأعماقٌ مختلفةٌ لشأنٍ واحدٍ، مع الأخذ بالاعتبار أن الأصل الأساس هو الإيمان، وذلك باعتبار فروق الظاهر والباطن للحقيقة الواحدة. إن الباطن يستدعي الظاهر ويربو به، وإن الظاهر يستند إلى الباطن ويتأسس عليه ويقوم به. وإن العملي هو صوت لروح النظري وجوهرِه.

فما دام أصل المسألة كذلك، فادعاء أن الدين محضُ مسألةٍ وجدانية، استهانةٌ بروح الدين ووقاحةٌ وتجاوُزٌ للحد. والذي يُظهِر قبولَه للدين -والله يتولى السرائر- ثم يقول: "اعتبرْ بما في قلبي"، ثم يتعدى ذلك إلى اعتبار الانشغال بالجوانب العملية للدين تطرفًا، فإنما يُمنّي نفسه بالأوهام الفارغة ويستتر عن المؤمنين بقناع الإيمان. إن تفسير الإيمان والإسلام تفسيرًا يمالئ أهواء الناس وغرائزهم، يخرجه عن دائرة الدين السماوي، ويجعله نظامًا بشريًّا؛ والأصل أن الإسلام وضْعٌ إلهيّ إلى البشر لإنقاذهم من الأهواء والغرائز وربطِهم بالحق وهداية الحق تعالى. أو بتعبير آخر، هو مجموع السنن الإلهية المنزلة لإخراج البشر من سجن الحيوانية وضِيق الجسمانية، وتجهيزِهم للانطلاق والسياحة في الإقليم الرحيب الفسيح للقلب والروح. وإن روح هذا النظام الذي لا نظير له هو الإيمان، وجسدَه هو الإسلام، وشعورَه هو الإحسان، وعنوانَه المعظم هو الدين.

الدين -وكما قلنا في البداية- يخاطب العقلاء وأصحاب الشعور،

ويوجههم بإرادتهم واختيارهم إلى الخير الدنيوي والأخروي، ويَعِدُ المستجيبين له، بالسعادة الأبدية. إن موقع المكلفين حيال الدين ليس الانسحاق تحت مسؤولياتهم إزاءه، بل -انطلاقًا من حقيقةِ "الخالقُ أعلم بخلقه"- تعليق الصلاح والحَسَن والخير والسعادة الأبدية بإرادتهم -في مستوى الشرط العادي- في علم الله وبإرادته وتقديره، تكريمٌ وتلطيفٌ من المشيئة الكلية إلى الاختيار الجزئي الموهوب لهم قديمًا. والدين بهذا الوجه من حيث أداؤه المعبِّر عن الألوهية وتفسيرُه المعبر عن العبودية، يختلف اختلافًا بيّنًا عن التنظيمات المتشكلة في صورة أديان؛ فأولا وقبل كل شيء، المخاطَبون في هذا الدين هم أصحاب العقول والإرادةِ، الذين يسْعَوْن إلى تطبيق هذا النظام الذي وضعه الله تعالى، ويَجِدُّون في تمثله. وبهذا الاعتبار يمكن تفسير الدين من وجهة أخرى بأنه: لطفٌ وتوجهٌ خاص إلى جاهزيةٍ خاصة. فإن عديم العقل والإرادة، ليس مكلفًا بالدين، وليس محلا للتوجيه إلى الخير.

نعم، إن العقل والإرادة هما الشرط الأول للدين وأهم أركان "التدين" الذي معناه أن يكون الإسلام حياةً للحياة. ويعني هذا، أن من لا عقل ولا إرادة له، ليس محلاً للتكليف بمسؤولية الدين التي تتطلب قابلية التمييز بين الخير والشر. فهو في حِلٍّ من الدين الذي هو مجموعة القوانين الإلهية، التي تَشترط العقلَ والاختيارَ أولاً، ومن التدين الذي هو مِن خَلقِ الله تعالى وكسبِ البشر.

وإن هذا الدين -باعتباره وضعًا وتكليفًا من العليم بخلقه- يرشد ويقود إلى الخير أبدًا، ويُجيش القلوب بوعدِ حُسن العاقبة، ويدعو إلى التحوط والحذر بوعيدِ سوء العاقبة. وأوامره ووصاياه في هذا الصدد، باقية وثابتة

لا تَخلَق جدَّتها. فإن هذه الأوامر والوصايا، ذات أداء أزلي وهندام أبدي... تَخْلَق الأنظمةُ كلها وتَبلَى، وتبقى هي جديدةً وندية ومغبوطة، إلا في عينِ مَن مَنعتْه الأحكامُ المسبقة من النظر السليم. فما من وسيلة أو طريق للخير والسعادة من نتاج عقل البشر، إلا ويُحكم عليها بالزوال أو القِدم.. ويَعرض عليها التبدل من مجتمع إلى آخر، وتترهل وتخرق بمرور الزمان، وتستهلك وتتهرأ بالغلط والتصحيح المستمرَّيْن... فهي لا تتعدى أن تكون "نُظَيْماتٍ" تُمَنّي بخيرات نسبية وإضافية في مستوى معين، بل تبدو وكأنها تُمَنّي بالخيرات بالنظر إلى ظاهر أمرها، لكنها لم تحقّق قط ما تصبو إليه البشرية في الماضي، ولن تحقق أمانيها البتة في المستقبل.

أما الدين الحق، فقد جاء برسالات البُشرَى التي تستجيب لكل مطالب الإنسان المخلوق للأبدية، والمرشح لها، والمتقلبِ دائمًا في آمال السعادة الأبدية. وإذ جاء بها لم يكلِّف الإنسانَ بتكليفٍ يخالف ماهيته وذاته، ولم يُهمِلْ رغبةً مِن رغباته ولا مطلبًا من مطالبه؛ فالعقول السليمة والأفكار المستقيمة تُقِرُّ أنْ لا إغفال ولا إحجام في هذا الدين عن رغبات الإنسان ومطالبه وأمانيه، ولا تَناقُض في أوامره التكوينية أو في تفسيرها. وفوق ذلك كله؛ إنه منظومة ممتازة، مفصلة حسب ماهية الإنسان وقابلياته وآماله وميوله، يَعِده ويرجيه بالسعادة الأخروية ورضى الحق تعالى وإمكان رؤية الله سبحانه.

وما دام امرؤ يعيش حياته وفاقًا لدين الإسلام، فإنه يستفيد من النعم المشروعة كافة في هذه الدنيا، وكذا يقضي عمره في نشوة السير في الدروب الموفية إلى الجنة بملاحظة الاطمئنان إلى حظوته بمزيد من ألطاف الحق تعالى حينما يحين الأوان، مع نوال الثواب وحسن الجزاء

في الأخرى بقدر يتعدى الخيال والتصور. هذا، وإذا وسعه أن يعيش حياته بالارتباط الدائم مع رضا الحق تعالى -وهو الأساس في التدين- فلعلنا لا نكون مبالِغين إذا قلنا إنه يباري الملائكة. وبالمقابل، يقف المتنكر للدين الحق، والمنقادُ "لعقل المَعاش"، والمنتسبُ إلى تنظيمات مختلفة متشكلة في صورة أديان، والمُناصرُ للنُّظُم البشرية أو الدنيوية (اللادينية)... عاجز عن تبيان ما يُطَمْئِن الإنسانَ أو يُقنعه بشأن حاضره وقابله، وسوف يعجز لا محالة! لأن هذا الدين هو نظام الله في الأرض. والله هو الخالق، والخالق هو الأعلم بكل شيء. ولا جرم أن كل فكر ومنهج ونظام بشريٍّ لِما أنه نتاج الإدراك المنحصر، من الممكن أن يعتلّ في أغلب الأحوال بعلات الأغراض والمنافع الشخصية أو العائلية أو القومية. ولذلك هي مُنْبَتَّةٌ لا تُوصِل إلى الخير المطلق، ولا يُرتجى منها السعادةُ الأبدية. فالمنظومات والنُّظُم المختلفة المحصورُ أفقُها بالأغراض الشخصية والنعراتِ العرقية والمصالح الطبقية والفئوية، مهما بدت متكاملة، فلن تستجيب لرغبات الإنسان ومتطلباته غير المحصورة. فإن من طبيعة هذه الأمور أن يكون أصحابها ذوي ذهنٍ كدر، وعقلٍ مشوش، ومنطقٍ أعمى، وشعورٍ قصير النظر، ووجدانٍ وبصيرةٍ ملبدةِ الأفق بالدخان والقتام... فهم لا يستطيعون أن يبصروا ما ينبغي أن يُرى، وإن يبصروا يبصروا شتاتًا وشيئًا معوجًّا، فتخرج تفسيراتهم مثقلة بالأغلاط وكليمة بالأخطاء.

الدين الحق نظام فريد لا يُضِل، ووضْعٌ إلهيٌّ فسيح ورحيب يفتح آفاقًا دنيوية وأخروية جديدة. فهذا النظام اللاهوتي "دينٌ" باعتبار أبعاده الاعتقادية، و"شريعةٌ" من وجهته العملية، و"ملّة" بوظائفه الاجتماعية... وهذه المعاني هي المقصودة متى ما نقول: "الملة الإسلامية". الواقع أن أسلوب إجراء

الحركات والفعاليات كلها يتوافق مع جوهر الإيمان، وكيفما كانت الصورة التي عليها الإيمان. والهيئة الاجتماعية تأخذ شكلها حسب تلك التصرفات والسلوكيات والفعاليات. ولذلك يجب على المؤمن الذي آمن إيمانًا سديدًا، وجعلَ هذا الإيمانَ بالعمل الصالح عمقًا من أعماق طبيعته وجِبلّته، أن يكون عاشقًا للحقيقة، ومنحازًا إلى الحق، وعادلا، ومستقيمًا، وأمينًا، ومثالًا للخلق الحسن، وسالكًا سبيل العلم والمعرفة، ومشدودًا شدًا مُحْكمًا إلى الجاذبية القدسية للدين، ومنشغلا بدافع الارتقاء إلى موقع العنصر الفعال في الموازنات الدولية... فتجده متحفزًا في هذه الأحوال، بل لابد أن يكون كذلك، وأن لا يتأخر طرفة عين حتى يحقق ما يريد.

إن المؤمن الذي كَمُل إيمانه وارتقى إيمانه إلى مرتبة الإذعان، وأعمالُه كلها موزونة بموازين الحق، وقلبُه موصول في كل وقت بربه، وتصرفاتُه كلها منطبعة بتلك الصلة الربانية... هذا المؤمن لن يستوقفه هذا وذاك، ولن يدور البتة في فَلَك الآخرين مهما كانوا؛ يقوم ويقعد حاملاً شعور الانتماء إلى أمة شريفة ممسكة بالمركز (أمة الوسط)، ومتميزًا بخصاله في كل حركة من حركاته. إنه يحس بتوقير غائر حيال كل إنسان وكل شيء مخلوق، لأجل الخالق، ويتوقى من الدنايا التي لا تأتلف مع نعمة "الإنسانية"، ويَبرز بين الناس بفائقيةِ دينه وإيمانه وفكره وسلوكياته، وإذ يتصرف كذلك، لا يعتريه قط استعلاءٌ أو كبر، ولا يفكر في إكراهِ غيره على قبول فهمه وفلسفته في الحياة. فهو يتقبل الآخر "كَمَا هُو" بملاحظةِ أن النظام الذي آمن به يَقطع سبيل الإكراه في الدين؛ فيعيش بمحبةِ مسلكه ومشربه بدلاً عن إجبار الآخرين على معتقداته، ويُشهر أفكاره ومعتقداته ويمثلها تمثيلاً سليمًا، ويعتني عناية شديدة بأن يكون أنموذجًا يغبطه

الناس، وإذ يقوم بذلك، لا يستجدي إعجابًا ومديحًا من أحد قطّ، بل يَحتسب كلَّ عمل من ضرورات السبيل لكسب رضى الحق تعالى؛ فلا يفكر إلا في مرضاة الحق تعالى في كل قول وعمل وسلوك، ويعرف أن المباهاة والبهارج جراثيمُ تَقتل القلب، ويتمسك بالحق تعالى بإخلاص كامل، ثم يمضي في مسيرته.

فالأصل أن الإسلام جاء لإنقاذ البشر من الإكراه، وتحفيزِهم لاختيارٍ جديدٍ بإرادتهم الحرة مخاطِبًا عقولهم ومنطقهم، وليس لدفع أتباعه إلى الضغط على هذا وذاك للقبول بنظام معتقداتهم أو إكراههم عليه. ففي الأيام التي طُبّق الدين بلا نقص ولا فتور، فإن جاذبيته المعنوية لم تَدَعْ حاجةً إلى ألاعيبِ المنطق الملتوية، أو القوة الطائشة، أو القهر الصريح أو الخفي، أو الجبر والإكراه؛ فلقد نطقت الحالُ وأبانت، ووضَّح اللسانُ المبهماتِ، فإذا خلا الميدانُ للقول، خوطب الوجدان، وبَشَّر البيانُ وأنذر، متحليًا بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يُضغَط على أحد لا قولا ولا فعلا ناهيك عن الإكراه والجبر، بل كان الإكراه والجبر ممتنعًا، لأن الإسلام لا يَقبل إيمان المكرَه والمقهور، ولأن الأعمال القائمة على الجبر والقوة القاهرة تُناقِض جوهره وروحه. بل لا يَحتسِبُ الدينُ الحقُّ من العبادات عملا ليس في أصله الإخلاص أو رضى الله تعالى. فلا يَرى في إيمان المكره والمقهور إيماناً، بل نفاقاً، ولا الأعمالَ أعمالاً، بل رياءً بشُعبها كافة. لذلك، لا يجيز الإسلامُ الإكراهَ في الدين، ويمنعه بنص القرآن: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)، فيقطع دابرَ القهر لأنه يَعتبر الرياء عينَ النفاق، ويَعتبر النفاقَ كفراً مستوراً. والحال أن الإسلام جاء ليقتلع جذور الكفر، ويمحوَ الشرك من الشعور والفكر، ويُغلقَ أبواب الرياء والسمعة.

لكنَّ مَنْعَ هذا الإكراهِ والجبر، لا ينفي الإجبار الداخلي للوجدان، أو التأثُّرَ والميل الشبيه بالقهر، المتولدَ في القلب المؤهلِ لمعرفة فضل التوقير وحق الاحترام حيال التعبير عن الحق قولاً وفعلاً. فمن الطبيعي أن يخاطَب وجدانُ البشر جميعًا بالأسلوب القرآني في كل فرصة متاحة، وأن تُحَفّزَ الفطراتُ السليمة، وأن تُخلَّصَ البشريةُ من الشرك وشوائبه بتوجيه القلوبِ الممهدةِ والمستعدة، إلى الله تعالى، ويُهَيَّجَ الإيمان ونورُ الإسلام وشعورُ الإخلاص والإحسانِ في القلوب، بتبليغ الناس جميعًا أنَّ أصفى الهداية وأخلصَها ممثلةٌ في سيدنا محمد ﷺ، وأن حقيقة الإنسان والأشياء والكائنات قد نودي بها في القرآن، وأن الحُكم والحكمة في قبضة الله تعالى. فَبذلك يُبعث في القلوب نورُ الإيمان والإسلامِ وشعورُ الإحسان والإخلاص، ويُنادَى الجميعُ إلى التوحيد الحقيقي. وهذا من الضرورات اللازمة لإيماننا بالإسلام واستجابتنا لدعوة سيدنا ﷺ.

إن نبينا خاتمُ الأنبياء، ورسالته التي قَدمها للإنسانية أكملُ الرسالات وأتمها، وأهدى الوسائل إلى الله وأضمنها وأوثقُها؛ ولم ترشِد إلا إلى الصواب والهدى. فمتى ما وَجد هذا الدينُ من يمثّله صدقًا صار ظلاً للحق، يلجأ إليه الناس من كل فئة سراعًا ليتفيأوا في ظله، وأَبطَل سحرَ الأنظمة الشيطانية كلها، ولم يَترك أتباعَه من غير نور حتى في أحلك الأحوال. فإن كان لا يستطيع في الوقت الحاضر أن يعبر عن نفسه تعبيرًا كاملاً، فذلك بعداوة خصومه الألدّاء المستمرة بلا توانٍ منذ عصور، وحقدِهم وبغضهم وتشويههم لصورته ومحاربتهم له من جهة، ولجهل منتسبيه وخذلانهم وغفلتهم من جهة أخرى. ولكن دوام هذا الحال محال؛ فحينما يحين الوقت، فسيَجد الفرصةَ لكي يعبّر عن نفسه كرّة أخرى في مناحي الحياة

كافة، ويتكلم بصوته الخاص، ويشعشع في العيون بألوانه ورقوشه الذاتية، ويحسّس بكنهه في كل مكان بتناغمه وانسجامه السماوي، وذلك بفحوى "الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه" (رواه البيهقي)، وبفضل أوليائه الذين يتولونه بخالص قلوبهم، ويربطون مصيرهم به، فيَجعلون غايةَ خَلْقِهم السيرَ في خطه.

نعم، حينما تنتبه هذه "الأمة" إلى أنها الأمة المصطفاة من الله، وأنه هو اختار لهم اسم "المسلمين" بمنطوقِ ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾(الحج:٧٨) فستقول: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(الحج:٧٨)، وتتوجه إلى ربها الكريم، وتستسلم لحكمته، وستسمو في النهاية -لا محالة- إلى حال التعبير عن ذاتها بالصورة التي يريدها الحق تعالى.

والصحيح أن إحراز هذا الموقع من الأمور التي يمكن أن تتحقق فعلاً في كل وقت. فإن الإسلام هو الدين الخاتم الكامل الذي اختاره الله تعالى ليشرّف به الإنسانيةَ. وهو بختمه وبكماله، تفصيلٌ وبسطٌ وأداء للأديان السماوية كلها حسب متطلبات الزمان الأخير. لكن هذا النظام الكامل محروم الآن من تمثيل في مستوى تمثيل الشهود الأوائل، ومبتلىً بسوء الحظِ في أيدي نفرٍ عديمي الوفاء، فهو لذلك محكوم عليه اليوم بالانحباس في الضيق وهو رحيب، وبالمنع من الكلام بلهجته الخاصة. وهذا يعني -في الوقت نفسه- تضييقاً وحظراً على الأديان السماوية كافة... إذ من البديهي أن الإسلام جاء مصدقاً للأنبياء جميعاً، ولرسالاتهم كلها مراعيا ما بلغه إدراك البشر وفهمُه... فصار بمثابةِ نداءٍ جامعٍ لأصواتهم وأنفاسهم أجمعين. وإن انقطاع صوت هذا النداء السماوي، وفي عصرٍ جمحت وطغت فيه الأفكارُ والمعتقداتُ الماديةُ والطبيعية، هو انهزام وخسران

للأديان الأخرى أيضاً تجاه هذه التيارات العفريتية المتمردة، بل يعني انقراضَها تماماً. فالإسلام ذودٌ عن الدين الحق وصون له. وكذلك هو - باعتبار أن دعوة الأنبياء جميعاً واحدة- بمثابة نقطةِ استنادٍ للنُّظُم السماوية الأخرى ونقطةِ استمدادٍ لها وشاهدٍ يشهد لها. فإحياء الإسلام مجدداً يُعَدّ إحياءً لها أيضاً في معنى من المعاني، بإصلاح الجوانب اللازم إصلاحُها، وتجديدِ وإعمارِ ما ينبغي إعادة تعميره ولو جزئياً، وفتحِ آفاق جديدة أمام أَتْباعها بالضوابط ذات الدور التأسيسي فيها. وإني أظن ذلك كله ممكنا، وأحسب أن وحدة المصدر مُعِين وسند متين في هذا الأمر.

إن الأديان كلها ركزت على أصول وأسس معينة واحدة، وأكدت على حقائقَ بعينها. ومن حيث الضوابط الأصلية -وبالتناسب مع أحوال الزمان وحاجاته- كلُّ نبي بعثه الله تعالى، قام بدور الامتداد لمن سبقه والمكمّل والمتتم له، وصَدَّق رسالةَ السابق أو السابقين، وكمَّلها حسب الأحوال والشرائط، وفصَّل للأمور التي تتطلب التفصيل، وجدد المسائل المحتاجة إلى تجديد، وفي الأحوال كلها أكد على الأمور الأصيلة بعينها؛ فالتوحيد والنبوة والبعث والنشور والعبادة هي المسائل المقدَّمة العزيزة لدى نبي... فهي الزبدة في دعوة الأنبياء والمرسلين أجمعين، مع التنوع في الأسلوب والتعبير والبيان والأداء. أما الفروق في الديانات أو الإجمال والتفصيل، والإطلاق والتقييد، والوضوح والخفاء وأمثالها في المسائل المختلفة، فتتعلق بأفق إدراك البشرية وتَحَضُّرِها وتطورها. فقد شرَّع الحق تعالى لكل أمة أوامرَ وقوانين خاصة تتعلق بالفروع حسب مبلغ علم تلك الأمة وإحاطتها، ونوعِ معضلاتها وحاجاتها، ووضَّح -مجدَّدًا- الأسسَ التكوينية والضوابط التشريعية حسب إدراك المخاطَبين، وبَيَّن تَنَزُّلاته

الكلامية بتنوعاتها المتعددة ببعدِ تجلٍّ مختلف في كل مرحلة. فتوالى التنوع والتجديد في أمورٍ مثلِ تفصيلِ المجمل وإطلاق المقيد وتعميم الخاص وتوضيح المبهم، مع أن محور المضمون والمنطوق واحد وثابت؛ فكم من المسائل هي كافية للمبتدئ والبدوي، تستدعي تفصيلا أكثر للمنتهي والحضري.

فهنا نشهد تبدلاً دائمًا في المسائل التبعية الثانوية في رسالات الأنبياء والرسل ابتداءً من أولهم إلى خاتمهم، بالصورة المبينة آنفًا، لكن هذا التبدل لم يمس أبدًا روحَ الرسالة الأصل، ولم يغادر حدود التفرعات. أما التفرق والاختلاف والصراع والحروب الناشئة منهما بين أتباع الأديان السماوية، فليس مردها إلى الدين والتدين، بل إلى تفسيرات خاطئة كان يسوقها المبتدئون من أتباع الأديان الذين لم يحافظوا على أصل الرسالة الإلهية وتربوا على الانجراف وراء المصالح والحقد والبغض والانحراف والأهواء والنزوات... ولا زالت القضية كذلك. فمن أجل ألا تقع أنواع التنازع والتفرق كما وقع أمس، ولكي نلم الشعث إن كان قد وقع اليوم، يجب القبول بالإيمان وبالإسلام وفاقًا للأصول والأسس التي وضعها الله تعالى، وجعْلُها جزءًا لا يتجزأ من طبعنا وجِبلّتنا. ولكن الحاجة ماسة إلى "العمل الصالح" لكي يثمر هذا الإيمانُ ويبدي قوتَه... بعبارة أخرى: حتى يسبغ الحياةَ على الوجدان؛ فبقدر إسناد الإيمان بالعمل الصالح وإمداد المؤمن بالعبادة، يقترب إلى الله تعالى، ويظل محافظا على هذا القرب واكتسابِ رضاه. وإلاَّ، فالإيمان الذي لم يُمَدَّ بالعبادة ولم يُسنَد بها، لن يبدي قوته تمامًا، وكذلك المؤمن الذي ليس له عبودية لن يستطيع الثبات منتصبًا على ساقيه أمدًا طويلا. ولذلك ما برح القرآن

الكريم يُتبِع الإيمان بالعمل الصالح ويُذكِّرُ بظاهر "العمل بالأركان" مع باطن "التصديق بالقلب" الذي هو الركن الأساس، ولا يفتأ ينبه إلى الحزم في مناسباتنا الداخلية والخارجية، الباطنة والظاهرة... إذ الإيمان أساس وحيد للعمل، والعملُ سُور للإيمان وصونٌ وشاهد وضمان له.

إن التصرفات الحسنة غير المستمدة من الإيمان هي أعمال توافقت مع الصواب لا يُحتَمَل دوامها وتماديها بتاتًا، ولا تُمنّي بمستقبل واعدٍ البتة. والإيمانُ من غير عمل إيمانٌ غير مسنود قد يَعرِض عليه التصدعُ والانهيار، ولا يُحتَمَل انفساحُه وتوسعُه، وتقليدٌ بارد عبارة عن مقبولات نظرية. أما الإسلام الذي نسميه "الدين الحق"، فهو العنوان المبجَّل للعمل بكل المسؤوليات والتكاليف التي جاء بها القرآن، إلى جانب الإيمان القلبي الصادق بمجموع الأصول والفروع لهاتين الحقيقتين.

فالإسلام بهذا الفهم هو المصدر الفريد الوحيد لسعادة الإنسان القلبيةِ والروحية، والمادية والمعنوية، والدنيوية والأخروية. غير أن الاستفادة من مصدرٍ كهذا على الوجه الأتم قد نيطت بالاستخدام الأمثل للأجهزة الظاهرية والباطنية الموهوبة للإنسان بالفطرة. فالذين يستخدمون مواهبهم الأولية كأجهزةِ استقبالٍ للواردات الثانية، يبدأون أعمالهم بالمحاسن والألطاف، ويقضونها بالمحاسن والألطاف في الأجواء الزرقاء لـ"الدوائر الصالحة"،[1] ويُفلحون بإنجازِ أعمالٍ تُنبئ عن مدارجِ الأبدية في كل آن ولمحةِ بصرٍ من حياتهم.

وما برح الإسلام مصدرَ عزٍ وقوة لأتْباعِه الذين يؤمنون به ويَحيَونه بصدق، وقد أسعدهم بقدرِ صدقِ انتسابهم، ولم يُوقِعْهم قط في خذلانٍ

[1] "الدوائر الصالحة" اشتقاق على الضد من "الدوائر الفاسدة" كما مر في هامش سابق. (المترجم).

دائم أو متمادٍ. فمنذ عهد الصحابة وحتى اليوم كَمْ عشنا بفضله في فترات مختلفة عصورًا ذهبية وأقمنا حضارات زاهية؛ وبالمقابل في مراحل الشؤم التي وَلَّينا فيها ظهورَنا الدينَ وقطعنا علاقته عن الحياة، توالت علينا النكبات وضجت الجموع عويلاً في الانكسارات، وانقصم ظهر المجتمع حتى عجز عن القيام. ولكنْ -حتى في تلك المراحل- هناك الكثير ممن ظَلَّ مؤمنًا بالدين وقوته، غير أنهم حدَّقوا بأبصارهم في أفق الجدود والحظوات الخارقة، وقاموا وقعدوا حالمين بعنايةِ الكرامات الخارقة، وغضوا البصر عن العادات والسنن الإلهية. ومعلوم أن على المؤمنين أن يؤمنوا بإمكان وقوع ألطاف الحقِ تعالى منةً منه وفضلاً.. لكن علهيم أيضًا أن لا ينسوا البتة أنّ الوسيلة إلى استمداد هذه العناية هي الهمةُ والمجاهدة. وقد تفضَّل الله تعالى بتذكيرنا في الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(العنكبوت:٦٩)، بأن الألطاف التي يخلقها ويُظهرها تقترن بعزم الإنسان وإرادته، فنبَّهَنا إلى أهمية الجهد والمثابرة في نفس الوقت الذي قطع فيه السبيلَ أمام الشرك، فكأن السعي والجهد من أمارات توفيقه وتوجهه الخاص.

ولابد أن أنبّه ههنا إلى أنه ينبغي أن لا يحمل محاولتنا لتفسيرِ وشرحِ النظام الإلهي الجاري في الوجود والحوادث، وفاعليةِ هذا النظام باطراد وانسجام، وكأنه تابع للأسباب... ينبغي أن لا يحمل ذلك على أننا نقوِّم الأحداث من منظورِ فكرة "التعين السابق" (Determination)[1]؛ فغاية ما

[1] المقصود أن لا يُفهم أن الأستاذ المؤلف يلتفت إلى الأسباب بملاحظة تعيين الأسباب للنتائج. ويُراجع ما هو مشروح في فصل المعينية (Determination) في كتاب "ونحن نقيم صرح الروح"، ١١٧، للمؤلف، دار النيل، ط:٣، ٢٠٠٩)، (المترجم).والتعيين: في الفرنسية (Détermination) وفي الإنكليزية (Determination). وإذا كان بين الشيئين علاقة توجب أن يكون الثاني لازماً عن الأول كانت هذه العلاقة تعيناً. وإذا كانت لا توجب ذلك دلت على عدم التعين. ويطلق اصطلاح التعين

نريده هي التذكير بأن الإرادة الكلية والجزئية في تصرفات الإنسان تَوَجُّهٌ ذو لون من المشيئة الإلهية، وكذلك التذكير بأهميتها في مستوى الشرط العادي. وأذكّر من فوري هنا بأمرٍ آخر هو: أنه -سواء اعتبرنا "الإرادة" مَيلا أو تصرفًا جزئيًّا في ضمن ذلك الميل- لابد أن يَستعمل المؤمن قابليةَ الترجيح هذه، والتي يحسها في وجدانه، باتجاهِ تحقيق ما يريده الحق تعالى ويشاؤه، وأن يحفظ عزمه وثباته على هذه الحال. فاللازم أن يتجنب المؤمن ما يقبّحه الشرع، وأن يسعى إلى المعروف، ويَثْبُتَ بأطواره ومواقفه في موضعِ تمثيل الإسلام ثباتًا دائمًا، حتى تكون كل لقطة من حياته أنموذجًا لوجه من أوجه الإسلام، وحتى يُصوّر الإسلامَ في ذاته ويشدو به في صوته ويجسّده في شكله باعتباره الممثلَ الصدوق لهذا الدين، وحتى يستخدمَ كل قدراته التي وهبها الله له في جعل الإسلام إحياءً للحياة... فيتحرى في كل صغيرة وكبيرة من أعماله كلها -مهما كانت- رضا الرب تعالى، وحسب تعبير بديع الزمان: أن يكون العمل لله، والابتداء لله، واللقاء لله، والتكلم لله... والتحرك أبدًا في دائرةِ "لله، ولوجه الله، ولأجل الله"، وتكونَ الثواني والدقائق والساعات والأيام في هذا العمر الفاني أجزاءً من زمانِ طريق البقاء، وتغدوَ وسائلَ لسعادته الأبدية.[1]

وعلى المؤمن أن يغذي إيمانَه بَنِيَّاته وتصوراته وإرادته وبرامجه، ويؤديَ حق إسلامه، وألا يرسل نفسه إلى الغفلة دقيقة واحدة أو ثانية واحدة، حتى لا يقع في التفسخ. وعليه أن يحرك مكوك الشعور والحس

السابق (Prédetermination) على تحديد واقعة أو فعل بعلل وأسباب متقدمة على اللحظة التي تسبق مباشرة حدوث تلك الواقعة أو ذلك الفعل. والتعيين السابق عند (بوسويه) مرادف للتحريك السابق (Prémotion). (المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، ١٩٨٢)

[1] من اللمعات لبديع الزمان سعيد النورسي، اللمعة الثالثة ص ٢٥، دار النيل، القاهرة، ٢٠٠٧.

والإرادة دائمًا من الإيمان إلى "الحركية"، ومن "الحركية" إلى الإيمان، وينسجَ نقوش قماشِ حياته ورقوشَه وكأنه يعرضُها لمشاهدة أنظار الله تعالى بكامل انشراحِ الصدر.

إن الكفر والإلحاد جهنم في القلب، وتَرْك العمل الصالح غربةٌ ومخمصة ووحشة. ولا مفر من ظهور اختلال الشخصية في أمثال هؤلاء بين حين وآخر. إن عزائم هؤلاء خائرة وأفكارهم سائبة وإراداتهم مشلولة. وإن الذي يقوي الإرادة إنما هو الدعاء والعبادة، والذي يقتلع جذور الأحاسيس والانقيادات الفاسدة إنما هو التَوَجُّه إلى الحق تعالى والإنابة إليه.. ولم يحدُث أن انقطع في الطريق من تَوَجَّهَ بوجهه إلى الله بالمعايير الإسلامية... ولئن تَعرَّض نفر منهم إلى اهتزازٍ بسبب ضعف منهم، فلم يُصرَع أحد منهم على ظهره تمامًا، فكيف بمن شد وثاق حياته بوشيجة الإحياء؟!

ولن يستطيع المؤمن أن يصمد واقفًا على ساقيه ولا ينكبَّ على الأرض إلا إذا عاش حياةً ذاتية وبعزم الإحياء. هذا ما شهدناه أبدًا. فهو عادة سبحانية لمشيئة الله الكلية، وتبديلُها وتغييرها محال على كل أحد. ولا جرم أن هناك أعداءً أَلِدّاءَ يَبرزون دومًا ضد الذين يعيشون الحياة في هذه الاستقامة، تطفح صدورُهم غيظًا وحقدًا على هؤلاء المؤمنين ويقعدون لهم كل مقعد ليسحقوهم، ويتربصون بهم الدوائر، ويتصدون لهم كل يوم بخطر جديد. ولكن المؤمنين حق الإيمان، يَخرجون دائمًا من هذه المحن أشد شحذًا من قبل، بل يتبدلون إلى أخرويين وربيين وربانيين... وبمشاعر الرضا، يغيّرون المصائب إلى رحمات، ويحوّلون زخاتِ البلايا إلى مرشّحات للتطهير والتصفية، فلا ينخلعون عن فكرهم وسلوكهم الذاتيَين.

فالواجب علينا -نحن المسلمين- أن نَعود إلى أنفسنا وقيمنا، ونعزم على البقاء بذاتنا، ونتغذى من مصادرنا بأقصى قدراتنا. وإن مصدر الدين الإسلامي ومنبعه هو القرآن والسنة. فهو فائض من صدرهما. وقد أحرزت الأمة الإسلامية موقعًا تُغبط عليه، وصارت قدوة للأمم ما دامت متمسكة بهذا النظام الإلهي؛ وبالمقابل كلما ابتعدت عن قيمها الذاتية، وقَلدت الأجانب، وسقطت أسيرةَ أهوائِها ونزواتها، انكبت على وجهها من بؤس إلى بؤس، ومن عارٍ إلى عار.

فيلزمُ المسلمَ ألا يهمل قيمه الذاتية البتة، وأن يحاول الاستفادة من المصادر الأجنبية بشرط استئذان النُّظُم والقواعد الأساسية الذاتية، وتنقيتها بالترشيح في تلك المصافي. ولكي لا يُساء فهمُ المقصود، نقول: إن الإسلام لا يمنع المسلمين من تعلم علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفضاء والطب والهندسة والإدارة العامة وإدارة الأعمال والزراعة وأمثالها، بل يحثهم على التخصص فيها وأخْذِها والاستفادة منها من أي مصدر كان، لكنه لا يريد أن يبقى المسلمون تبعًا لغيرهم على الدوام، بل يحبذُ لهم الاستفادةَ مما عند الأجانب من هذه الأمور، ثم التخلصَ السريع من استجدائها، وإقامةَ عالمهم الذاتي في الأوامر الإلهية التكوينية كما في الأوامر التشريعية.

وكان أجدادنا في عصورنا الذهبية، يتذكرون مرارًا وكلَّ يوم أنهم "خلفاء الله في الأرض"، ويتحرون مراد الله ورضاه في كل حركة من حركاتهم الدنيوية والأخروية، ويمحصون أحوالهم بميزان الأوامر التشريعية، ويقيسون مدى صلتهم بربهم، ويَجِدُّون في التعرف على الأسس التكوينية بعشق جادٍّ للحقيقة والبحث، ويَحُدّون البصر لاستطلاع

الوجود والحوادث، ويحثون السير في السلوك إلى التوفيق بين ما اطلعوا عليه فعلموا وما سمعوه ففهموا، وبين العائلة والمجتمع والوجود كله، فيهرولون من العلم إلى العرفان، ويحلقون من المعرفة إلى المحبة، فيرون في كل شيء وحادثةٍ وتبليغٍ من الحق تعالى وسيلةً للسمو نحوه، ويضعونها في مقدمة أعمالهم الدنيوية وملاحظاتهم الأخروية.

ولقد بلغوا أفقًا كهذا الأفق لأنهم عاشوا الإسلام وأحيوه باعتباره كلاًّ لا يتجزأ، وبحبهم إياه من صميم قلوبهم وتحبيبهم له، وبجعلِ الحياة الإسلامية غايةَ حياتهم. فلما توطد في قلوبهم روحُ حركةٍ كهذه توطُّدًا مكينًا، تأسَّس توازُن الدنيا والعقبى تلقائيًّا وجَعَلَهُم مجتمعًا متوازنًا، فصاروا مقتدرين على التعبير عن ذواتهم في كل مكان وفي كل مجال للحياة. فما برحوا -بفضل ذلك- يتجددون ويتغيّرون في دائرة "مقوماتهم الذاتية"، ويهرعون إلى التغيير، ويتعمقون على الدوام، ويصبحون بإيمانهم وحركيتهم أساتذةً يُعلمون الإنسانية دروسًا في الحضارة في رقعةٍ جغرافيةٍ واسعة. فكانوا مرايا للحق تعالى في حركاتهم وسكناتهم، وكلامهم وصمتهم... وكانوا في كل تصرفاتهم وسلوكياتهم المتناغمة المؤتلفة كأن كل واحد منهم آلة موسيقية تُشْجي بأناشيده تعالى... ويَدْعون إليه بنداءاتهم الحرَّى كنداء الدلَّال. فكأنهم -بتعمقهم وعرفانهم هذا- مجتمعُ صحابة، وكأنهم ممثلون لخصال كثيرة تَرجع إلى رؤية النبي ﷺ.

فإذا ما دخل هؤلاء المنورون إلى العلاقات مع الله تعالى أو تفكروا في عقباهم، فإنهم -بين فينة وفينة- يرسلون أنفسهم في رحاب المعرفة، ويرتعشون بالخشية من أعماقهم، وتوجف قلوبهم، ويستغرقون في المحاسبة، ويجددون مراجعة كل شيء فيهم، ويَزِنون معايير القلب كل

مرة، ويحسون دائمًا بوطأة المسؤوليات والتكاليف على أكتافهم كالجبال، وتذوب النفس والجسمانية فيهم ذوبانًا يبدلهم إلى موجودات روحانية، وبالأخص إذا ما فاض القرآنُ والحقائقُ التي يستهدف القرآنُ شرحَها وانصبت في قلوبهم، فإن هذه القلوب التي غدت وكأن كل واحد منها بيت من بيوت الله ستتطهر من كل خاطر أجنبي، فلا تفكر إلا به تعالى ولا تشعر إلا به وتشرق شمس النهار به وتغيب به.

والأصل أن القلب المؤمن لا يَسَعُ الإسلامَ إلى جانبِ معتقدٍ غيره أو تصورات أخرى. فما إن يدخل الإيمان والإسلام القلبَ، حتى يكنسَ المتقبَّلاتِ الخاطئة ويمسحها ويلفظها، وتصبغ العبادةُ كلَّ جهاته بلونه، ويصونه شعورُ الإحسان تحت دفيئةِ أن يرى الحق أو يراه الحق، فلا يَبقى فيه إلا الأنسام التي تهبُّ منه تعالى.

فبفضل هذه العلاقة مع الله تعالى، والقائمةِ على أساس الإيمان والإسلام، تتجلى في فكر الإنسان وسلوكه استقامةٌ لا تتذبذب، وإخلاصٌ متماد، وشعورٌ مستمر في التعاون، وهمةٌ قلبية للتساند، وأخلاق أخروية. فالإيمان النافذ إلى دواخل الإنسان بهذه الدرجة، يتجلى في أحوال المؤمن كلها، سواء في الوظيفة أو التجارة أو معاملات الأسواق أو سائر الأنشطة الاجتماعية، فيطبع بصماته عليها، ويرسم على روحه صورةَ معناه، وتنقلب الصورة بمرور الزمان إلى قصيدة معنوية تُقرأ على تصرفاته وسلوكياته كلها... فكأن مؤمنا في مثل هذا التماسك هو المعنيُّ بمقولةِ: "إذا رأيته ذكرتَ الله تعالى"[1].

ونعتقد أن الإيمان والإسلام بالمعنى الحقيقي هو هذا، والوضعُ الإلهي الذي نسميه "الدين" هو العنوان الجامع لكل ذلك، و"التدين" اسم

[1] ابن ماجه، الزهد ٤.

لصيرورة هذه الحقيقة الجليلة حياةً أو إحياء للحياة. مبدؤه يستند إلى أجمل الكلام وأحسنه: كلمةِ الشهادة أو كلمة التوحيد.. ومنتهاه يمضي حتى يصل إلى رؤية الحق تعالى. فكل مَن يرَضى به ويعيشه على هذا الحال -والله يتولى السرائر- هو مؤمن ومسلم ومتدين من وجهة الكتاب والسنة... وأي اسم أو عنوان آخر غير ذلك قد يُلصق به يعني تهوينًا من شأنه ووضعًا من قدره.

ويَرِد في المصطلحات الإسلامية بلساننا تعبيراتٌ مثل: "إسلام" و"مسلمان-مسلم" و"دينْدَارْ-ملتزم" عَلَمًا على المسلم. لكن لا يرِد فيها كلمات دسها الأجانب عن قصدٍ إلى لساننا فاستعملها البعض، مثل "إسلامي" (Islamist) و"دينيّ".[1] إننا لم نتعرف على مثل هذه الألفاظ والأوصاف في ديننا من قبل وإلى عصرنا الحاضر. ولا يهمنا أنْ وردت بعينها أو بأشباهها في الأديان الأخرى أو المنظومات المتشكلة في صورة أديان غير ديننا. فبموجب ديننا، المسلمُ الذي يرتكب الذنوب أو يقع في الخطيئة يكون "آثما"، لكنه يبقى "مؤمنًا". والذي يترك العمل بأمور من الأسس الإسلامية، بشرط عدم إنكاره لها، يبقى "مسلما". فعلى هذا الاعتبار، تسميةُ الذي يبتغي أن يعيش الدين كاملاً بـ"الإسلامي" (Islamist) أو "الديني" غيرُ مناسب، كما أن تسمية تارك العمل بقسم من الأوامر الإسلامية أو المتقاعس عنها بـ"الكُفري" أو "الضلالي" أو "الفسقي" تعبير غير لائق. وأرى أن على الجميع أن يصون نزاهة لسانه، وأن يفكر ويتكلم بمستوى يليق بالإنسان، وأن يتعلم كيف يحترم كل أحد.

---

[1] انظر هامش صفحة ١٧٢ و١٧٣